سيرة

زين العابدين عبد الكلام

رِحلتي

تحوِيل الأحلام إلى أفعال



ترجمة وتقديم: لطفية الدليمي

رحلتي

تحويل الأحلام إلى أفعال



مذكرات

Author: **A.P.J. ABDUL KALAM**

اسم المؤلف: **زين العابدين عبد الكلام**

Title: **My Journey**
Transforming Dreams into Actions

عنوان الكتاب: رِحلتي
تحويل الأحلام إلى أفعال

Translator: **Lutfia Al-Dulaimi**

ترجمة وتقديم: **لطفيّة الدليمي**

Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**

تصميم الغلاف: **ماجد الماجدي**

P.C.: **Al-Mada**

الناشر: **دار المدى**

First Edition: **2017**

الطبعة الأولى: 2017

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

زين العابدين عبد الكلام

رِحلتي

تحويل الأحلام إلى أفعال

ترجمة وتقديم: لطفيّة الدليمي



هذا الكتاب ترجمة للعمل المعنون:

رحلتي: تحويل الأحلام إلى أفعال

My Journey
Transforming Dreams into Actions

لمؤلفه الدكتور زين العابدين عبد الكلام، وقد صدر الكتاب عن دار نشر روبا المحدودة عام ٢٠١٣

Rupa Publications India Pvt. Ltd 2013

إلى الستة عشر مليوناً من الشباب الذين قابلتهم
وتفاعلت معهم خلال العقدين الماضيين...

أي. بي. جَيْ. عبد الكلام

المحتويات

تقديم المترجمة

تتطلّب الحرفة الروائية بالضرورة تدقيقاً متواصلاً في طبيعة الشخصية الإنسانية التي تُعدُّ عموداً أساسياً تستند إليها أية كتابة روائية بصرف النظر عن التجنيس الروائي السائد، وحتى لو كانت الرواية تنتمي لما يسمى (رواية الأفكار) فليس ثمة أفكار تأتي بمعزل عن العقول المنتجة أو المتلقّية لتلك الأفكار؛ إذ تبقى الشخصية الإنسانية عنصراً حاسماً في جميع الحقول الإبداعية، ومن الطبيعي أن ينسحب الإهتمام بالشخصية الإنسانية إلى دراستها من قبل المهتمين في مختلف حقول إختصاصاتهم، وبالنسبة لي فقد عملت منذ بداياتي المبكرة في الكتابة الروائية على إتباع منهج في القراءات المكثفة لعلم نفس الشخصية الإنسانية، وثمة نمط فريد في تلك الشخصية إستهواني منذ البدء وعكفت على تتبّع آثاره بين الشخصيات التي أعرفها أو سمعت بها سواء في محيطي الفردي أو ضمن المحيط العالمي الواسع. يتمحور نمط الشخصية التي أعنيها هنا في فرد يحمل منذ صغره أهدافاً ملحمية عظمى ويرى ذاته جديرة بإنجازها (أو المساهمة في إنجازها ضمن فريق عمل) ولايقنع بأن يمضي بحياته وهو يمتهن مهنة متداولة حتى لو كانت في عداد المهن المرموقة التي تدرّ الكثير من المال، والمثير في هذه الشخصية أنها غالبا ماتكون ذات نوازع عرفانية وتعيش عيشة الكفاف وترى سعادتها متحققة في البذل

والعطاء اللذين يرتقيان بأحوال الناس على الصعيد الجمعي - لا الفردي حسب -، وقد وقع بين يدي - منذ عشر سنوات خلت - كتاب باللغة الإنكليزية؛ كان الكتاب بعنوان (**أجنحة من نار** Wings of Fire) لمؤلّف هندي يدعى (زين العابدين عبد الكلام) وعرفت بعدها أن الرجل هو الرئيس الهندي وقد ألّف ذلك الكتاب قبل توليه الرئاسة الهندية. مضيت في قراءة الكتاب بشغف وعرفت منذ الصفحات الأولى منه أنني إزاء شخصية من ذلك النمط الذي أشرت اليه: شخصية إيثارية ذات طموحات ملحمية عملاقة أنجزت الكثير للأمة الهندية وبخاصة في المجال الصاروخي والنووي والانساني،مع امتلاك الرجل لرؤية مستقبلية طموحة للأمة الهندية جمعاء.

نشر عبد الكلام سيرته الذاتية المعنونة (أجنحة من نار) عام ١٩٩٩، ونُشرت طبعتها الحادية عشرة عام ٢٠٠٢، وقد ظهرت مترجمة إلى العربية ضمن مشروع (كلمة) للترجمة عام ٢٠٠٩. يمكن عدّ السيرة الذاتية هذه نوعاً من سيرة تقنية ومعرفية؛ إذ تناول عبد الكلام في سيرته هذه مسيرته المتصاعدة والشجاعة في أطوار أربعة قسّم بها حياته وإبتدأ الطور الأخير فيها عام ١٩٩١ وتُرِك مفتوح النهايات في إشارة واضحة إلى الآفاق البعيدة التي تمتدّ إليها تطلعاته. بعد أن أصبح عبد الكلام رئيساً للهند في الفترة ٢٠٠٢ - ٢٠٠٧ وثّق التحديات المهمة التي جابهت رئاسته في كتاب بعنوان (**إنعطافات: رحلة بين التحديات** Turning Points: A Journey Through Challenges) نُشِر عام ٢٠١٢ ويعدّ سيرة ذاتية رئاسية وإن تخللتها الكثير من الرؤى والإستبصارات التقنية التي أراد عبد الكلام رؤيتها متحققة في الأمة الهندية ولكنها تظل رؤى محكومة بالإعتبارات الحكومية البيروقراطية التي خبرها عبد الكلام خلال رئاسته.

نشر عبد الكلام مذكراته الموسومة (رحلتي: تحويل الأحلام إلى أفعال) في كتاب صغير عام ٢٠١٣، ويمكن النظر إلى هذا الكتاب - المذكرات على أنه إستذكارات جميلة لتفاصيل صغيرة لم يأتِ عبد الكلام على ذكرها في سيرته الذاتية المنشورة في الكتابين السابقين، وثمة القليل من الإستذكارات والحوادث في هذه المذكرات أشار لها الرجل في سيرته ولكن في سياق تقريري يذكّر بالوقائع، أما في هذه المذكرات فإن القارئ يستشعر منذ البداية العاطفة الجياشة التي تفعم روح الكاتب وتفيض من عقله وهو يأتي على ذكر تفاصيل انسانية شفيفة وملهمة ساهمت في تشكيل وعيه المبكر وشخصيته الإيثارية ذات الطموحات الملحمية العابرة للذات والساعية لتكريس الهند كقوة عظمى على الساحة العالمية.

تمتاز هذه المذكرات بغلبة الطابع الحميمي فيها وتركيزها على الجوانب الإنسانية النبيلة التي تعدّ ضرورة لازمة تفرضها متطلبات العيش وإدامة الحياة في البيئات الفقيرة، ويتحسس المرء أثناء قراءة هذه المذكرات برغبة عبد الكلامِ في تأكيد القيمة العليا للجوانب الإيثارية الرائعة التي حازها شخوص كُثر في حياته بدءً من أبيه وأمه وأخته وإبن عمه وحتى بائع الكتب في مدراس وإنتهاءً بالعلماء الكبار الذين عمل معهم في وقت لاحق من حياته المهنية، وأحسب بحقّ أن أمثال هذه المذكّرات تعدّ وثائق أنثروبولوجية ومجتمعية ميدانية تضيف لعدّة الباحث والمتطلّع لفهم طبيعة العلاقات السائدة في المجتمعات الفقيرة - تلك العلاقات المتّسمة بالتعاضد العضوي الذي لانشهد له مثيلاً في البيئات الثرية التنافسية، وربما يكون هذا هو السبب الذي جعلِ البيئات غير الثرية (والهند من بينها) قادرة على إنجاز أعاجيب تقنية بكُلَف بسيطة لاتقارن

مع كلف مثيلاتها في البيئات الغنية؛ إذ أن العلماء والمطوّرين الذين نشأوا في بيئات فقيرة يميلون في العادة إلى الإستخدام الأمثل للموارد وإنتاج مُصنّعات ذات كلف تقع في نطاق قدرة الأغلبية على حيازتها، ويمكننا في هذا الميدان أن نذكر التطوير التقني الخاص بتصنيع الدعامة القلبية بكلفة رخيصة نسبياً والذي ساهم فيه عبد الكلام، كما لايمكن إغفال رغبته العنيدة في تصنيع حاسوب لوحي يخدم طلبة المدارس بخاصة ولاتتعدى كلفته بضع دولارات. يكاد المرء يشعر وهو يتفحص الكلمات الحميمة التي كتب بها عبد الكلام مذكراته هذه بأنه يريد تثبيت الحقيقة التالية أمام الجميع: من الطبيعي أن يبتهج المرء بإنجازاته العلمية والتقنية الباهرة، وقد يحصل على أعلى المراتب الأكاديمية والجوائز التي قد ترقى لمرتبة جائزة نوبل، وقد تنهال عليه الأموال كنتيجة لأعماله البحثية أو التطويرية في حقل ما، ولكن تبقى سمات الإيثارية وكرم الروح والعطاء والإنتباه لمعاناة الآخرين ونبذ روح الجشع هي القيم العليا التي تمثّل مشكاة مضيئة وإلهاماً مستديماً للكائنات البشرية جميعها في هذه الحياة.

جذبني هذا الكتاب بقوة خارقة منذ صفحاته الأولى، وبالإضافة لتوقي الشديد في قراءة السير الشخصية والمذكرات التي تسهب في الإشارة إلى المخفي وغير المحكيّ عنه فثمة سبب إضافي دفعني لترجمة هذا الكتاب. تمدّنا نظريات التنمية الحديثة بوسائل وأساليب ونماذج معيارية قياسية صارمة لتحقيق الإرتقاء الإقتصادي والتطور التقني، ولكن هذه النظريات لاتأتي في العادة على ذكر (الرمزية) التي تمثّلها بعض الشخصيات المؤثرة والتي يمكن لها أن تدفع بالتطور التقني أشواطاً إلى الأمام، وربما يكمن السبب وراء هذا الأمر أن نظريات التنمية المعيارية تتحدث عن بيئات مؤسساتية شائعة في العالم الغربي الذي لم تعد تشغل

الرمزية فيه أي حيّز في الإهتمامات الفردية؛ في حين أن الأمر يختلف مع البيئات المشرقية التي لاتزال الرمزية الشخصية تلعب فيها دوراً مؤثراً، وهنا لابدّ من التذكير أن هذه الرمزية عامل بنّاء ودافع للتنمية على الصعيدين الفردي والمجتمعي متى ماإمتلكت الشخصية الرمزية سمات إيثارية وحازت على قدرات علمية وتقنية بارعة ومتقدمة تحصّلت عليها بالجهد والكدّ والتعب والمجالدة بعيداً عن الرمزيات الدينية أو العائلية او السياسية المعلّبة التي أبتلي بها العالم الثالث (ونحن جزء متأصل فيه بالطبع). يقول عبد الكلام في سياق إجابته عن سؤال يختص بوصاياه للشباب: **ينبغي إحلال الروحية القائمة على مبدأ (ماالذي يمكنني منحه) محلّ الروحية القائمة على (ماالذي يمكنني إقتناصه)**، وأرى أن هذه الرؤية الإيثارية الراقية هي التي تتغلغل في ثنايا تفاصيل هذه المذكرات؛ ومن ثمّ كانت السبب الذي دفعني لترجمة هذا الكتاب ووضعه بين أيدي القرّاء الكرام.

ثمة ملمح أساسي لايمكن أن يخفى على قارئ هذا الكتاب: يستشعر عبد الكلام في دواخله نوعاً من المصالحة الطبيعية غير القسرية بين العلم والنوازع الروحانية، ويرى في التناقض المزعوم بين العالمين تأكيداً للمادية المتطرفة، وتتأسّس نظرة عبد الكلام على قناعته الفلسفية المبكرة التي يجملها بقوله: «**لم يكن بوسعي القبول بأنّ مدركاتنا الحسية هي المصدر الأوحد لبلوغ المعرفة والحقيقة**»، ثم يمضي في توضيح فكرته قائلاً: «**وقد نشأتُ مع درس أساسي يقول أن الواقع الحقيقي يكمن في مكان ما بعيداً عن العالم المادي الذي نراه ونتعامل معه – في مملكة العالم الروحانيّ، وأن المعرفة الحقيقية تكمن في إستكشاف أغوار الذات الجوّانية، أمّا خلال دراستي العليا فقد أصبحت وعلى نحو تدريجيّ جزء من عالم آخر يقوم على البراهين والتجارب**

والصياغات الرياضياتية المحكمة، ولكن شيئاً فشيئاً تعلّمتُ كيف أتبيّن موضع قدمي وسط ذينك العالمين على الرغم من أنّ جهدي الفائق إستلزم سنوات عدّة لكي يتبلور في حالة راسخة»، وهنا نتبيّن بوضوح كامل أن التعارض بين عالميْ العلم والروحانيات ليس سوى تعارض كيفي يمكن إزاحته بالجهد الذاتي الخالص للمرء بعيداً عن المواضعات التبسيطية السائدة التي ترمي إلى تكريس الجهل والفاقة وربط العلم بالمعرفة الدينية المتكلسة وجعل الروحانية فضاء جمعياً تسوده «الكهنوتية المستحدثة» المتشددة، في حين أن الروحانية التي يحكي عنها عبد الكلام في ثنايا كتابه هذا هي نوع من الإستكشاف الذاتي الشفّاف والعميق والصبور والأقرب إلى السياحة في العوالم العرفانية الرقيقة المفعمة بالكياسة والتسامح ورقة الشعور والعواطف الإنسانية الغامرة، ومن جانب آخر يكاد يكون أمراً بديهياً أن نلمح في روحانية عبد الكلام إنشداداً إلى الجذور الدينية المشرقية بكل تلاوينها وهي مايمثّل ملمحاً مختلفاً عمّا نطالعه في أغلب الأدبيات الغربية المختصة بالمذكرات والسيرة الذاتية والتي تطفح بالأنوية الجامحة والتفاصيل الحياتية الغارقة في الحسية والجموح العاطفي.

يختصر عبد الكلام رؤيته للحياة في هذه الكلمات التي جاءت في المقطع الختامي لكتابه، وأرى فيها نصاً مدهشاً مكتوباً بكياسة وسموّ روح رفيعة تليق بشخصية نزيهة مثل عبد الكلام:

العمل الدؤوب والتقوى، الإنكباب على الدراسة والتعلّم، التعاطف والمغفرة – هذه كانت دوماً أحجار الزاوية في حياتي، وقد أمكنني من خلال هذا العمل مشاركة الناس بجذور إيماني بهذه القيم النبيلة، وأحسب في حقيقة الأمر أن أية حياة عاشها المرء على نحو بالغ الثراء والإمتلاء وتحدّث بشأن ثرائها وامتلائها مع الآخرين فإنها ستغدو منجماً من الأفكار والمشاعر التي بوسعها إضافة المزيد

من البريق على تلك الأعجوبة التي ندعوها (الحياة). وفي سياق هذه العملية، إذا ماأتيحت لأفكاري القدرة على منح القرّاء أجنحة تمكّنهم من التحليق بعيداً وتحقيق أحلامهم فأحسبني حينذاك قد أتممت النهوض بأعباء دوري الصغير في مخطط الحياة والذي حمّلني إياه القدر ووضع أعباءه على كاهلي.

توفي الرئيس الهندي الأسبق زين العابدين عبد الكلام في ٢٧ تموز ٢٠١٥ وغاب عن دنيانا ذلك الرجل الشاعر الزاهد عاشق الهند الذي أعجبتُ أيما إعجاب بشخصيته النزيهة ومكانته العلمية في الهند والعالم، ودفعني إعجابي هذا إلى قراءة مصادر متعددة عنه، وليست ترجمتي لكتاب مذكراته هذا من باب الرثاء؛ فالخالدون لا يموتون، بل أرى في عملي تلويحة وداع لهذه الشخصية الفريدة ومواقفها المميزة. ليس كافياً أن نعرف الكثير عن الأدباء والفنانين والمخرجين بل لا بد أن نعلم المزيد عن رجال عصرنا المرموقين من صُنّاع الأمل ورعاة المستقبل ومطوّري التقنية، وكم تمنيت أن يكون لدينا قادة من طراز عبد الكلام يديرون أمور البلاد بحنكة وحكمة ويتمتعون بهذا القدر من الثقافة والرّفعة والنزاهة والإنتماء للوطن وحده دون سواه ويخطّطون لمستقبل أفضل مدعوم بالمعرفة والتقدم العلمي والتقني وسيادة السلام المجتمعي، وأتطلّع إلى أن تسهم ترجمة هذه المذكرات في كسر تابو النمط التقليدي لرؤساء دولنا وتقديم النموذج المغاير لهم تماماً: أن يكون الرئيس شاعراً أو مهندس فضاء عالمياً أو كاتباً أو عالماً فيزيائياً، الخ وليس سياسياً تقليدياً فحسب.

لطفية الدليمي

عمّان: ٧ آذار ٢٠١٦



زين العابدين عبد الكلام

أبو بكر زين العابدين عبد الكلام Avul Pakir Jainulabdeen Abdul Kalam: عالم ومهندس صواريخ هندي لعب دوراً رائدا في تطوير برنامجي الهند الصاروخي والنووي كما كان رئيساً للهند للفترة ٢٠٠٢ - ٢٠٠٧، وهو كاتب وشاعر لم ينتم يوما لحزب سياسي ويمثّل الرئيس المسلم الثالث للهند متعددة الأديان والأعراق - رئيس من أقلية مسلمة في بلد يمثل الهندوس غالبيته العظمى ويليهم السيخ إضافة إلى الف وخمسمائة من الأعراق والطوائف والأديان والعقائد الأخرى.

وُلِد عبد الكلام في بلدة راميسوارام الهندية عام ١٩٣١ وحصل على شهادة جامعية في الهندسة الفضائية من معهد مدراس التقني، وإنضمّ عام ١٩٥٨ إلى منظّمة الأبحاث والتطوير الدفاعي (DRDO)

ثم التحق بمنظمة أبحاث الفضاء الهندية وعمل مديراً للمشروع الخاص بتطوير العربة الحاملة للأقمار الصناعية، ثمّ عاد عبد الكلام عام ١٩٨٢ إلى منظّمة الأبحاث والتطوير الدفاعي وعمل في تطوير البرنامج الصاروخي البالستي الهندي حتّى استحق لقب «رجل الصواريخ»، وللفترة من ١٩٩٢ - ١٩٩٧ عمل عبد الكلام مستشاراً علمياً لوزير الدفاع الهندي ثمّ كبير المستشارين للحكومة الهندية للفترة ١٩٩٩ - ٢٠٠١. في عام ١٩٩٨ وضع عبد الكلام برنامجاً تقنياً طموحاً تحت عنوان (رؤية تكنولوجية حتى عام ٢٠٢٠) ويعدّ بمثابة خارطة طريق لجعل الهند مجتمعاً قادراً على المنافسة التقنية العالمية خلال عشرين عاماً بعد ١٩٩٨ وركّز البرنامج على الموضوعات الرئيسية التالية: زيادة الإنتاجية الزراعية، والتركيز على التقنية كوسيلة أساسية للنمو الإقتصادي، وزيادة قدرة المواطنين على الإستفادة من الوسائل والتقنيات الصحية والتعليمية.

رشّح التحالف الوطني الديمقراطي عبد الكلام عام ٢٠٠٢ لمنصب الرئاسة وحاز ترشيحه على قبول جميع الأحزاب بما فيها الأحزاب المعارضة للتحالف الوطني - وبصرف النظر عن كونه مسلماً - بسبب مساهماته العلمية والتقنية في تطوير المجتمع الهندي، وحاز عبد الكلام منصب الرئاسة فعلاً وأدّى القسم باعتباره الرئيس الحادي عشر للهند وغادر المنصب عام ٢٠٠٧ وخلفته (براتيبها باتل) أوّل رئيسة في تأريخ الهند.

يُعرَف عن عبد الكلام نزاهته المطلقة ونمط حياته المتواضع حتى بعد ان صار رئيساً للهند؛ لم يمتلك الرجل جهاز تلفاز أبداً كما واظب على النهوض مبكراً من فراشه عند السادسة والنصف أو السابعة صباحاً

وكان يأوي إلى فراشه عند الثانية بعد منتصف الليل، ولم تكن كل مقتنياته في الحياة لتتجاوز عدداً من الكتب وآلة الفينا **Veena** التي كان يعزف عليها أحياناً بعض المقطوعات الموسيقية الهندية الكلاسيكية، كما كانت لديه أيضاً بعض قطع الملابس إلى جانب مشغل أسطوانات مدمجة وجهاز حاسب محمول (لابتوب) وقد آلت هذه المقتنيات البسيطة عقب وفاته إلى أخيه الأكبر، ولم يترك عبد الكلام وصية بعد موته.

حصل عبد الكلام على الكثير من الجوائز المرموقة والشهادات الفخرية، وألّف العديد من الكتب أذكر أدناه بعضاً منها:

- الهند عام ٢٠٢٠: رؤية للألفية الجديدة، ١٩٩٨.

India 2020: A Vision for the New Millennium,1998.

- العقول المتوهّجة: إطلاق العنان للقدرة الهندية، ٢٠٠٢.

Ignited Minds: Unleashing the Power Within India, 2002.

- أفكار ملهِمة، ٢٠٠٧.

Inspiring Thoughts, 2007.

- الهدف هو ثلاثة بلايين نسمة، ٢٠١١.

Target 3 Billion, 2011.

- إعادة جذوة التوهّج: مسالك علمية نحو مستقبل أكثر إشراقاً، ٢٠١٥.

Reignited: Scientific Pathways to a Brighter Future, 2015.

• التجاوز: تجاربي الروحية مع براموك سواميجي، ٢٠١٥.

Transcendence: My Spiritual Experiences with Pramukh Swamiji, 2015.

وثمة الكثير من الكتب الأخرى التي ألفها الرئيس الراحل وبضمنها كتب سيرته التي أشرت إليها في تقديمي السابق إلى جانب كتاب مذكراته هذا الذي أقدّم ترجمته للقرّاء الكرام.

المترجمة

حوار مع زين العابدين عبد الكلام

أدنـاه ترجمة لبعض الأسئلة التي وجّهها موقع (Knowledge@ Wharton) الالكتروني التابع لجامعة بنسلفانيا الامريكية، وكذلك موقع dna الألكتروني إلى البروفسور عبد الكلام، وينطوي الحواران على الجوانب الرؤيوية الكاشفة التي أجدُنا في أشد الحاجة إليها في مجتمعاتنا التي لا تزال تغيّب المعرفة العلمية والتقنية وتقتصر على سرد بعض المعلومات الجافة دون النظر إلى هذه المعرفة من جهة تأثيراتها المجتمعية وتعزيز دور الحكومات في توفير الشروط اللازمة للإنجاز العلمي والتقني، ويترافق هذا مع النظرة الخاطئة لدينا إلى المعرفة العلمية على أنّها معرفة غارقة في التخصّص والفوقية بما يجعلها أقرب إلى الأساطير المغلقة، وربّما كان في إقصاء العلماء والتقنيين والمخترعين عن مراكز الإدارة والقرار عندنا واستيلاء الحزبيين من متوسطي التعليم ومزوري الشهادات على مراكز الادارة ما يوضّح جانباً من الجوانب العديدة للتبلّد والإنكفاء الحضاري والثقافي والعلمي – وقبل كل هذا الانكفاء الاقتصادي– الذي يغرق فيه عراقنا المبتلى بسوء الإدارة المستديمة منذ عقود خلت.

المترجمة

الحوار

• *في إشارة إلى مفردة (المعرفة knowledge) التي يتسمّى بها موقعنا، هل يمكن أن تقول لنا ما الذي تعنيه مفردة المعرفة لك؟*

كتبت مرة قصيدة من أربعة سطور أسميتها (الإبداع)، أقول فيها:

التعلّم يمهّد السبيل للإبداع
الإبداع يقود إلى التفكير
التفكير يخلق المعرفة
المعرفة تجعل منك إمرءً عظيماً...

• *دعنا نبدأ الحديث إنطلاقاً من ماضيك: فقد ولدت في قرية هندية عام ١٩٣١ . ما القضايا الكبرى التي حصلت في الهند وتعدّ نفسك شاهداً عليها؟*

عندما كنت يافعاً رأيت إلى أي حال إنتهت الحرب العالمية الثانية والإصابات الخطيرة والتاثيرات المميتة التي نجمت عنها، ورأيت الهند تنال إستقلالها في آب ١٩٤٧، وتتبّعت مسار الارتقاء الاقتصادي الهندي المتصاعد الذي انطلق عام ١٩٩١. عملت مع علماء رؤيويين عظام من أمثال البروفسور (فيكرام سارابهاي) ورأيت العديد من الثورات تتحقق أمام ناظري: الثورة الخضراء ومن

بعدها الثورة العارمة في الاتصالات البعيدة ونمو تقنيات الاتصالات والمعلومات، وعاصرت نجاحات الهند في برنامجها الفضائي وكفايتها الذاتية في حقل التسلّح الستراتيجي وأشعر دوماً أننا مطالبون بأن نعمل بكل طاقتنا لجلب الابتسامة إلى وجوه أكثر من مليار هندي.

• نعلم أنك ساهمت بطريقة حاسمة في تطوير برنامج الصواريخ الهندي. ما الدروس المهمة التي تعلّمتها من وراء قيادتك لهذا البرنامج الحيوي؟

واحد من أهم الدروس التي تعلمتها في برنامج الهند الفضائي والصاروخي هو أن لا نكتفي بالتعامل مع النجاح بل ينبغي أن نتعلّم كيف نتعامل مع الفشل أيضاً وأودّ كثيراً أن يدرك الشباب كيف يتعاملون مع الفشل: فالمشكلات لا ينبغي أن تكون القائدة في أي مشروع حيوي بل ينبغي أن نكون نحن من يسيطر على المشكلات ويهزمها في النهاية.

• يعرف عنك نزوعك الروحاني العميق. هل أحسست يوماً ما بنوع من صراع أو ذنب ما يجتاحك بسبب عملك في تطوير الصواريخ والأسلحة النووية؟

أدركت منذ بداية عملي أن السلام مهم للغاية لتطور بلدي، لكن السلام يأتي دوماً مترافقاً مع القوة: القوة تحترم القوة لذا نحن نحتاج القوة لكي نجعل امتنا تنعم بالسلام.

• كيف أصبحت رئيساً للهند في تموز عام ٢٠٠٢؟ أية مواصفات قيادية يحتاجها المرء ليقود بلداً كبيراً ومعقّداً ومتخماً بالاشكاليات مثل الهند؟

أية قيادة – في حقل التكنولوجيا او السياسة – تتطلّب أن يحوز القائد على سمات ست أساسية: الأولى هي ان يمتلك القائد الرؤية vision، والثانية هي أن يكون بمقدوره طرق وسائل غير مجرّبة أو مستكشفة لأن الناس يميلون في الغالب إلى الاندفاع في طرق مطروقة من الاخرين ولا يميلون إلى دفع الاثمان المترتبة على مغامرة تجريب وسائل غير مطروقة، والسمة الثالثة هي أن يعرف القائد كيف يتعامل مع النجاح، والأهم من ذلك بكثير كيف يتعامل مع الفشل، أما السمة الرابعة فهي أن القائد ينبغي أن يتحلّى بالشجاعة في اتخاذ قرارات مسؤولة، والسمة الخامسة ينبغي على القائد أن يكون شفّافاً ومرئياً من قبل الجميع، وأخيراً يجب على القائد ان يعمل في نزاهة كاملة وسط محيط من المساعدين والمستشارين الذين يناظرونه نزاهة ليتمكّن من تحقيق الأهداف المؤشّرة. كل هذه السمات تسم القائد وبخاصة عندما يكون رئيس دولة، وينبغي له دوماً ان يكون على صلة يومية وثيقة بشعبه وأرى أن راشتراباتي بافان (السكن الرئاسي في نيودلهي والمناظر للبيت الأبيض الأمريكي) يجب أن يكون بيتاً لكل الناس، وعندما كنت رئيساً للهند سافرت إلى كل الولايات وعبرت الكثير من التلال والصحاري والبحار وكنت على تماس يومي مباشر مع العديد من ملايين الناس.

• *في رؤيتك المستقبلية عن الهند تلعب التكنولوجيا دوراً بالغ الأهمية. كيف ستلعب الشبكات الاجتماعية بكل أشكالها: شبكة المعرفة وشبكة الصحة وشبكة الحوكمة دورها في ارتقاء الهند وتطوّرها؟*

تكمن الفكرة وراء أهمية الشبكات الاجتماعية في أن شبكة المعرفة ستوفر لمواطني القرى الهندية المهارة والمعرفة اللازمتين لجعلهم أفراداً منتجين في مجتمعهم، وستعمل الشبكة الصحية على نقل الخدمات الصحية المتاحة في المراكز الحضرية إلى المواطنين الريفيين وجعلها متاحة لهم في الوقت الذي ستعمل

فيه شبكة الحوكمة Governance الأداء الحكومي شفّافاً أمام المواطنين بما يجعلهم مقتنعين بدور المؤسسات الحكومية في خدمتهم فعلاً.

• *لو عادت بك السنوات إلى الوراء رئيساً للهند فما الذي ستفعله مما لم يتسنّ لك فعله قبلاً؟*

لطالما أعجبتني فكرة أن يكون «راشتراباتي بافان» هو المنزل الأول في الهند الذي يتم توفير كامل طاقته بإستخدام الطاقة الشمسية.

• *أنت شاعر موهوب كما نعلم. هل يمكنك أن تسرد لنا شيئاً من قصيدتك الفضلى؟*

أفضل ما كتبت من شعر – كما أظن – هو قصيدة (الرؤية The Vision) وقد قرأتها سابقاً في البرلمان الهندي وسأعيد ذكرها هنا:

تسلّقت وتسلّقت...
أين القمّة، يا ربّي؟
حرثت وحرثت...
أين كنز المعرفة، يا ربّي؟
أبحرت وأبحرت...
أين جزيرة السلام، يا ربّي؟
أيّها العظيم القدرة...
بارك أمّتي بالرؤية والكدح المفضيين إلى السعادة

• *ماهي بعضُ مُتعك الكبرى؟*

الكتب هي أصدقائي المفضّلون، وأعتبرُ بيتي الذي يضمُ مكتبة تحوي بضعة

ألوف من الكتب بمثابة كنزي الأعظم. كلّ كتاب جديد مؤسس على فكرة جديدة يلهمني ويمنحني قدرة متجددة على التأمل وإعمال الفكر والقلب والنظر. أحب قراءة الشعر وكتابته، وأحب الموسيقى التي تشفي العقل، وأحب بخاصة الموسيقى الكارتانية Cartanic والهندوستانية الكلاسيكية. (الموسيقى الكارتانية: لون موسيقي يشيع في المقاطعات الهندية الجنوبية على وجه التحديد، المترجمة).

- *ما أفضل ماقرأتَ من الكتب؟*

بعضٌ من أفضل قراءاتي هي: الضوء المنبعث من مصابيح عدّة Light From Many Lamps للكاتبة ليليان إيكلير واتسون Lillian Eichler Watson، إمبراطوريات العقل Empires of the Mind للكاتب دينيس ويتلي Denis Waitley، عظمة كلّ يوم Everyday Greatness للكاتب ستيفن كوفي Stephen Covey، الطب والتعاطف Medicine and Compassion لكبير الرهبان تشوكي نيما Choakyi Nyima، تيا Tiya للكاتب ساماربان Samarpan.

- *ماالذي تعملُ عليه للمستقبل؟*

أواصل الكتابة للتعبير عن أفكاري بشأن ماينبغي أن تكون عليه الهند علمياً وتقنياً وإقتصادياً عام ٢٠٢٠، وكذلك بشأن كيفية قدح عقول الشباب وإلهامهم بشأن المستقبل.

- *لطالما كنتَ مصدر إلهامٍ للكثيرين. من كان مُلهِمكَ أنت؟*

مصدر إلهامي كان مدرس العلوم في مدرستي: شري سيفاسوبرامانيا، الذي

علّمني مواد دراسية تدرّسُ لتلاميذ في الثالثة عشرة وأنا لمّا أزل في الثامنة من عمري بعدُ!!!.

• *هل ثمّة من رسائل محدّدة لك لجيل الشباب؟*

أولاً: كونوا متفرّدين. ثانياً: تذكروا أن الهند ستكون في حاجة لجهودكم خلال القرن الحادي والعشرين لتعملوا بنزاهة ولتنجحوا بنزاهة أيضاً. ثالثاً: ينبغي إحلال الروحية القائمة على مبدأ (ماالذي يمكنني منحه) محلّ الروحية القائمة على (ماالذي يمكنني إقتناصه) – تلك هي الطريقة المثلى لإستئصال الجشع الذي يقود إلى مشاكل خطيرة مثل: الفساد، والتدهور البيئي المستديم، والسلوكيات الأخلاقية الشائنة.

مقدّمة

تحكي رحلتي هذه عن تجارب مميزة ومحدّدة في حياتي إبتداءً من طفولتي وحتى اليوم حيث تجاوزتُ الثمانين، وفي كل سنوات حياتي تلك وخلال كلّ التجارب التي مرزتُ فيها كان الدرس الأكثر أهمية الذي تعلّمتهُ هو أن المرء ينبغي أن يواصل الحلم في كل الأطوار المختلفة من حياته ومن ثمّ يعمل بجدية ومثابرة في سبيل تحقيق تلك الأحلام، ونحن إذا مافعلنا هذا فإن النجاح سيكون قريباً من التحقق لامحالة. أقول دوماً للكثيرين الذين أقابلهم **«الأحلام ليست مانراه في منامنا، بل هي بالضبط ماينبغي أن يجعلنا لاننام أبداً!!!»**.

جاءتني فكرة كتابة هذا الكتاب أحد الأيام وأنا أتمشّى في حديقة منزلي، ومثلما يحصل في كل مرّة وقفت تحت شجرة الأرجونا[1] Arjuna الضخمة التي يقارب عمرها المائة من السنوات ومضيْتُ أتأمّل فروعها العلوية البعيدة وأتفحص فيما لو كان ثمة أعشاش جديدة بنتها الطيور فيها، أو لو كان ثمة خلايا نحل جديدة قد ظهرت بين فروعها –

---

١ – الأرجونا: شجرة ضخمة سُمّيت بإسم الأمير البطل في ملحمة المهابهارتا، كما أنها في الوقت ذاته إسم لإحدى الشخصيتيْن الرئيسيتين في النص الهندي المقدّس المكتوب بالسنسكريتية والمسمّى «باغافادغيتا» الذي يعني (أنشودة الربّ). (المترجمة)

وبينما كنت أحدّق في أعلى الشجرة الضاربة جذورها عميقاً في أرض هذه المدينة: مدينة دلهي، فإنّ شيئاً ما في تلك البرهة ذكّرني وعلى نحوٍ عظيم الوقع والتأثير بأبي: كان أبي هو الآخر معتاداً على الإستيقاظ المبكّر من النوم وقضاء الساعات المبكرة الأولى من يومه مع الطبيعة وهو يتفحّص أشجار الكاكاو العائدة له ثم يمضي ليذرع طرقات البلدة التي كنا نقيم فيها. إسترجعَتْ ذاكرتي في تلك اللحظة - مع إبتسامة على وجهي وإحساس غامر بالسعادة - طفولتي المبكّرة والناس الذين مرّوا بحياتي وأولئك الذين صافحَتْ يديّ أياديهم في رحلة حياتي الطويلة، ثم مضيتُ أتفكّر ملياً في نوع الرّحلة التي مثّلتْها حياتي: المسالك غير المعتادة التي طرقْتُها، الأشياء التي رأيْتُها، والحوادث التي كنت جزءً فاعلاً فيها، ثم رحتُ أتساءل هل أنّ تلك الذكريات والتجارب ينبغي أن تبقى لي وحدي أم يتوجّب أن أتشاركها مع قرّائي العديدين إلى جانب أفراد عائلتي الذين بدأت أعدادهم تتزايد أكثر فأكثر مثل الجذور الكثيفة لشجرة بانيان[٢] Banyan، وأتطلّع حقاً أن تبلغ أصداء رحلتي هذه أحفاد أحفادي!

كتبتُ بضعة كتبٍ حتى اليوم، وقد وضعتُ في البعض من تلك الكتب صوراً من تجارب طفولتي: عندما كتبتُ الكتاب الأول عن حياتي (**المقصود به هو السيرة الذاتية التي نشرها عبد الكلام عام ١٩٩٩ تحت عنوان أجنحة من نار Wings of Fire، المترجمة**) تملّكتني الدهشة ومضيْت أتساءل: هل سيكون هذا العمل قادراً على إمتاع أحدٍ ما؟. على خلاف ذلك الكتاب فإن رحلتي

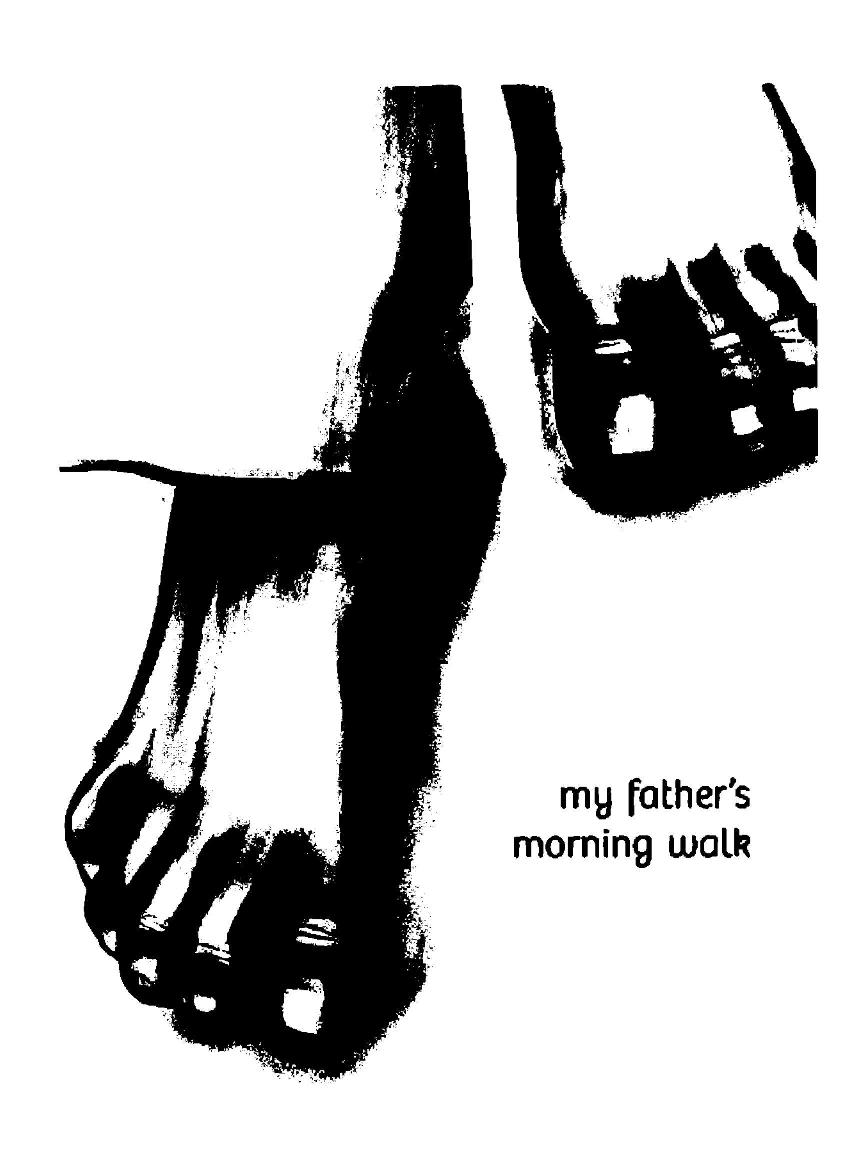
٢- بانيان: شجرة تين هندية ضخمة تمدّ أغصانها جذوراً هوائية حولها تستحيل جذوعاً إضافية فيما بعد، لذا فإن الشجرة الناضجة الواحدة تغطّي مساحة واسعة غير متوقّعة. (المترجمة)

هذه تولي إهتماماً أكثر للحيثيات الصغيرة للغاية والتي لايعرفها الكثيرون عن حياتي. تعمّدتُ في رحلتي هذه الإسهاب في التفاصيل الخاصة بحياة كلّ من أبي وأمي لأنني حتى اليوم وقد بلغتُ الثانية والثمانين لاأزال أثمّن القيم والأخلاقيات التي تعهّدا بغرسها في روحي بمحبّة وألفة. إن الصفات التي غرسَها والديّ فيّ والتي تعلّمتها من خلال مراقبة أفعالهما بدقّة إلى جانب فهم ردّات أفعالهما تجاه المحن والشدائد التي واجهَتْهُما - أقول أن تلك الصفات ساعدتني على العيش بطريقة أفضل، ولازال أمي وأبي يعيشان معي حتى اليوم من خلال تلك القيم والأخلاقيات. بعد سنوات لاحقة طويلة لاتزال ذاكرتي تحتفظ بذكرياتها عندما كان والدي يتحدث عن ضرورة تفهّم عقول الناس أو عندما كان يواجه المصاعب برزانة وحصافة، ولازلت أستحضر صدى كلماته أنا الآخر متى ماوجدت نفسي وهي تخوض قتالاً في جبهات عديدة شديدة الوطأة، أما في لمسة أمي الحانية وتربيتها الرقيقة المترفقة لأولادها فقد وجدت فيها عالماً رحباً من الحب والحنان. وجدتُ نفسي في رحلتي هذه مدفوعاً أيضاً لتسجيل التفاصيل الصغيرة الخاصة بكلّ من مساهمات أختي زوهرا Zohra وكرم روحها اللامحدود، والنظرة المتفتحة الرحبة التي كان يحوزها معلّمي الناصح الأول في حياتي: أحمد جلال الدين الذي كان أول من شجّعني على التفكير بحرية والإستزادة اللامحدودة من الدراسة. ثمة الكثير من البرهات المحبِطة والمِحَن الشاقة التي خبرتُها في حياتي - مثل فشلي في الإختبارات وبالتالي التأهل للإنضمام إلى القوة الجوية الهندية، وسواها من برهات الفشل - ولكنّها كلها علّمتني ضرورة وجود الإخفاقات في حياة المرء. نعم، بدت تلك الأوقات العصيبة عصية على التجاوز في وقتها، ولكن الحقّ أن ليس ثمة من صعوبةٍ ما عصية على التجاوز متى ماإمتلك المرء العزيمة والثبات في قلبه.

كنت مؤخراً أتمشى مع صديقي البروفسور آرون تيواري ***Arun Tiwari*** *عندما باغتني بسؤال غير متوقع: «صاحبي عبد الكلام، هل تستطيع أن تُجمل حياتك العريضة بجملة واحدة؟»*. *جعلني هذا السؤال أفكّر لبرهة ثم قلت في نهاية الأمر: «صديقي آرون، إن حياتي يمكن تلخيصها بالعبارات والكلمات التالية:* **الحبّ المصبوب صبّاً على الطفل... الكفاح... المزيد من الكفاح... دموع تطفح حزناً ومرارة... ثم دموع الفرح والبهجة... ثم أخيراً حياة تطفح بالجمال والإنجاز مثل رؤية ولادة بدر كامل».**

يراودني أمل عريض بأن حكاياتي في رحلتي هذه ستساعد قرّائي على فهم أحلامهم وستدفعهم للعمل على تحقيق تلك الأحلام وذاك هو الأمر الذي من شأنه أن يبقيهم يقظي البصيرة.

أي. بي. جَيْ. عبد الكلام



my father's morning walk

جولة أبي الصباحية على الأقدام

أتذكّر - وبقدر ماتستطيع ذاكرتي أن تمسك من وقائع في عمق الماضي - أن يوم أبي زين العابدين كان يبدأ إعتيادياً عند الرابعة فجراً: إعتاد أبي النهوض مبكراً من النوم وقبل أي فرد آخر في العائلة، وبعد أن يفرغ من أداء فروض الصلاة مع أولى تباشير إنبلاج الصباح كان يمضي في مسيرة راجلة طويلة ليطلّ على بستان أشجار جوز الهند العائدة له. كنّا نقيم في راميسوارام - تلك البلدة الصغيرة التي تحوي معبداً وتقع على إحدى جزر منطقة التاميل نادو في الساحل الشرقي من الهند. كان الفجر يشق الظلام مبكّراً، واعتاد جدولنا اليومي أن يتبع إيقاع شروق الشمس وغروبها وكذلك إيقاع الأمواج البحرية الساحلية.

كان صوت البحر يمتلك حضوراً ثابتاً وراسخاً في حياتنا، وكان من الطبيعي للغاية أن نشهد الأعاصير والزوابع الحلزونية العملاقة وهي تضرب بلدتنا خلال شهور الرياح الموسمية الهائجة. كنّا نعيش في منزلنا الذي آل إلينا من أسلافنا وكان منزلاً واسعاً نسبياً ومُشيّداً من الطابوق والصخر الجيري، وكان قد شيّد في وقت ما من القرن التاسع عشر، وعلى الرغم من أنه لم يكن بالمنزل الفخم أبداً غير أنه كان متخماً بالحب والمودّة. كان أبي يعمل في مهنة بناء السفن الصغيرة، وبالإضافة لعمله هذا كنا نمتلك بستاناً صغيراً لأشجار جوز الهند على مبعدة أربعة

أميال من منزلنا، واعتاد أبي أن ينطلق نحو ذلك البستان مبكراً في ساعات الصباح الأولى. كانت حلقة مسيرة أبي الصباحية قد أخذت شكلها النهائي وقلّما حاد عن ذلك الترتيب: كان أبي ينطلق أول الأمر باتجاه المسجد الذي يقع في الجادّة ذاتها التي يقع فيها منزلنا، وكانت تلك الجادة بمثابة تجمّع محلي للمسلمين غير بعيد عن معبد شيفا؛ الأمر الذي جعل بلدتنا إسماً مشهوراً لقرون عدّة. كان أبي بعد فراغه من أداء الصلاة في المسجد يمشي في الأزقة الضيقة للبلدة والتي كانت تؤدّي في نهاياتها إلى طرقات أوسع وأكثر إنفتاحاً تقود نحو بساتين أشجار جوز الهند. كانت رحلة أبي تنتهي عند وصوله إلى بستانه المحدّد ضمن رقعة مزارع أشجار جوز الهند العامرة.

أحاول اليوم أن أتخيل أبي وهو يذرع تلك الطرقات الهادئة قبل وقت طويل من اليوم الذي أُلقِي فيه على عاتقه أعباء جسام: كنّا عائلة كبيرة وأنا واثق تمام الثقة أن أعباء هائلة تجشّمها أبي للإيفاء بالمتطلبات الكثيرة لعائلتنا، وأكاد أراه وهو يذرع الطرقات مصغياً بكلّ جوارحه لصوت البحر ولأصوات الغربان السود والطيور الأخرى التي تكون حاضرة دوماً وتملأ الأجواء على مدار الساعة بعد أن إعتادت الإستيقاظ من رقدتها مع طلوع الشمس مثلما يفعل أبي تماماً. ربما كان أبي يردّد صلواته مع نفسه وهو يقطع تلك الطرقات ماشياً وربما كان يطيل التفكير بعائلته داخل عقله الصباحي الهادئ الذي لم يتشوّش بعد في زحمة العمل، ولم يحصل مرة أن أسأل أبي بشأن ماكان يجول بعقله خلال جولته الصباحية الطويلة تلك؛ إذ من ذا الذي يمتلك – وهو صبيّ يافع مثلي – الوقت الكافي ليسأل والده بشأن هذا الأمر؟ ولكني على كل حال كنت أعرف معرفة راسخة أن جولة أبي الصباحية أضافت

شيئاً مميزاً لشخصيته: شيء من الهدوء المحبّب الذي وسم شخصيته وارتسم على محيّاه وبان واضحاً حتى للغرباء الذين لم تكن لهم به سابق معرفة من قبل.

لم يحصل أبي على الكثير من التعليم الرسمي كما لم يحصل على الكثير من المال في حياته الطويلة، ولكنه برغم ذلك كان واحداً من أكثر الناس حكمة وكرماً بين الذين أتاح لي الحظّ فرصة معرفتهم. كان المسجد نقطة التجمّع المحلية في بلدتنا وكان أبي الرجل الذي يسعى الجميع إليه في ساعات شدّتهم وحاجتهم؛ إذ كانوا يؤمنون أن ثمة صلة حقيقية تصله بالله. أتذكّر حتى اليوم الأحايين التي كنت أرافق فيها أبي إلى المسجد لأداء الصلوات معه، ولطالما حرص أبي دوماً أن لاتفوتنا أيّ من مواعيد الصلاة الثابتة و لم نحاول نحن من جانبنا أن نتملّص من تلك المواعيد المفروضة التي لانستطيع لها تبديلاً. كنّا بعد أن يفرغ أبي من أداء الصلاة معنا نندفع جميعاً إلى الشارع حيث لامناص من وجود جماعات من الناس في إنتظار ابي لتتبادل الحديث معه وتشاركه مخاوفها المقلقة.

ماالذي كان هؤلاء – رجالاً ونسوة – يرونه في أبي؟ لم يكن أبي واعظاً كما لم يكن معلّماً دينياً بل كان محض رجلٍ مخلص لقناعاته ومعتقداته الدينية. ماالذي منحه أبي لهؤلاء؟ أعتقدُ اليوم أن محض وجود أبي بين هؤلاء الناس كان كافياً ليبعث فيهم الهدوء ويمنحهم الثقة والأمل. كان أبي يؤمّهم في الصلاة وكان الكثير منهم يأتون له بأوعية من الماء ليضع أصابع يديه فيها ويتلو عليها صلواته، ثم كانوا يأخذون ذلك الماء ويسقونه للمرضى، وحصل كثيراً عقب ذلك أن كان هؤلاء يتوافدون لمنزلنا بغية تقديم فروض الشكر الواجبة لأبي الذي منح الشفاء لأحبّتهم الأقربين الأعزاء.

لم كان أبي يفعل هذا؟ ومن أين حصل على سكينة القلب وكياسته المعطَاءة اللتين دفعتاه للحديث مع الناس والتبسّط معهم وبثّ الراحة في أرواحهم والصلاة من أجلهم وسط مشاغل حياته القاسية؟ كان أبي مالك قارب متواضعاً و لم تكن حياته سهلة أو رخيّة يوماً ما له، وبرغم ذلك لم أرَ أبي يصدّ أي أحد قصده بغية إزاحة الهمّ الذي ينوء به كاهله أو لمجرّد الحديث بشأن ماينغّص عليه حياته ويفاقم همومه.

كان أبي، ومن غير أي شكّ، إنساناً روحانياً عميق الإيمان مع رابطة – من نوع ما – تربطه بالله، وأعتقد أن روحانية أبي العميقة نشأت فيه لكونه كان رجلاً عليماً: كان لأبي علمٌ غزير بالنصوص المقدّسة وكان يمتلك قدرة فائقة على إستخلاص الحقائق الجوهرية والأساسية من تلك النصوص وتقديمها حتى لتلك العقول الشابة الباحثة عن المعرفة؛ إذ عندما كنت أسأله عن أمرٍ ما كان يجيبني دوماً ويحاول بأقصى مايستطيع توضيح الأمور لي بلغته التاميلية البسيطة المباشرة. سألت أبي مرة: (لم يأتي هؤلاء الناس إليك؟ ومالذي تفعله لهم حقاً؟)، ولازالت إجابة أبَي ماثلة في ذاكرتي بعد مايقارب الخمسة عقود: (متى ماوجدت الكائنات البشرية ذواتها وحيدة فإنها تبدأ – وكردة فعل طبيعية – في طلب الرفقة والشراكة، ومتى ماكانت تلك الكائنات في ورطة فإنها تبحث عن أحدٍ ما طلباً للمساعدة... كل معاناة متواترة أو توق ممضّ لشيء ما أو رغبة جامحة في شيء ما تجد طريقها حتماً لمن يمكن أن يمدّ يد العون، وبقدر مايختص الأمر بهؤلاء الذين يأتون إليّ وهم في حالة قنوط وخذلان فأنا لست بأكثر من وسيطٍ يدعم جهودهم الحثيثة لطرد القوى الشيطانية الخبيثة من خلال وسائل الصلاة والعطايا الحسنة...)، ثم كان أبي يمضي في إخباري شيئاً عن الصلاة وقدرتها الفعالة في روح

الإنسان ولازالت كلماته تلك ترنّ في ذاكرتي برغم كل تلك السنوات الكثيرة التي قضيتها في حقل البحث العلمي. كان أبي لاينفكّ يكرّر القول أن طلب المساعدة من خارج الذات لن يكون يوماً ما الجواب النهائي لما يقلق الروح الإنسانية: (ينبغي لكل فردٍ منّا أن يفهم الفرق الواضح بين الرؤية المدفوعة بالخوف والتي تأتي بها الأقدار وبين تلك الرؤية التي تمكّننا من البحث عن العدو القابع في دواخلنا والمتربّص برغبتنا في الإنجاز وتحقيق الذات... عندما تنزل بك الملمّات حاول - بنيّ - أن تفهم العلاقات الكامنة بين أشكال معاناتك. الشدائد توفّر لنا دوماً فرصاً ثمينة متاحة للتأمل والرؤية).

عنت نصيحة أبي لي أنني كنت دوماً قادراً على التطلّع والمضي بثقة برغم كل الإنكسارات والخذلانات التي وضعها القدر أمامي، وقد حصل لاحقاً وسافرت كثيراً بعيداً عن بلدتي الأولى راميسوارام وقادتني رحلتي إلى أماكن بعيدة لم أتخيل أنني سأبلغها يوماً - من قمرة القيادة لطائرة نفاثة وحتى الموقع الأعلى في سدة رئاسة الأمة الهندية، ولكن كانت كلمات أبي دون سواها هي مايتردّد في ذاكرتي خلال رحلاتي العديدة تلك: (ثمة قدرة إلهية ترعانا وتقودنا برفق وكياسة بعيداً عن الأحزان والخيبات والمصائب، ولو فتحنا عقولنا وجعلنا تلك القدرة تتخللنا وتمسك بنا فإنها خليقة حتماً بقيادتنا إلى حيث مكاننا المناسب. حرّرْ ذاتك من الوثاق الذي يقيّد قدراتك واجعل تلك القدرة الإلهية تغمر عقلك بكامله وعندها ستخطو أولى خطواتك في طريق السعادة الحقيقية والسلام الحقيقي) - هذا هو صوت أبي الذي أسمعه دوماً متى ماخيّم عليّ القلق وبلغ بي الهمّ حدوداً تبدو وكأنها عصية على المواجهة والتجاوز.

أبلغ اليوم الثانية والثمانين من العمر (**وقت كتابة النص بالطبع، المترجمة**)، ومثلما كان يفعل أبي فإن يومي ومنذ يفاعتي وحتى اليوم يبدأ بجولة صباحية مشياً على الأقدام: أشهد كل صباح طلوع شمس جديدة إبتداء من خيوط الغبش الأولى التي تتخلل ظلمة السماء ثم تغمرها شيئاً فشيئاً حتى يظهر قرص الشمس بكامله، ويكون بمقدوري خلال تلك الفترة الساحرة التلذذ بنسائم الصباح المنعشة والإصغاء إلى أصوات الطيور المغرّدة المفعمة بالجمال. أفهم تماماً كيف يمكن لهذه البرهات الصباحية القصيرة أن تشدّنا إلى الطبيعة؛ إذ أن كل صباح جديد يختلف عن الصباحات الأخرى من حيث العناصر التي تجتمع فيه وتشكّل ماسيكون عليه الباقي من اليوم بأكمله وتلك واحدة من أشكال «الدراما» الصغيرة التي تلعبها الطبيعة كل صباح، وعلى خلاف أبي فغالباً ماأجد نفسي في مدن وبلدات مختلفة عند الصباح وذلك أمر يعود لأسفاري العديدة ولكن مع ذلك فإننا نجد السكينة والهدوء مع مطلع كل صباح متشابهة في كل مكان في العالم، وحيثما أكون أستطيع أن أجد شجرة معمّرة ضاربة جذورها في أعماق الأرض والزمن وحيث يكون بمقدور الأطيار بناء أعشاشها والتحضير ليومها القادم الذي تلوح تباشيره مع إطلالة الفجر الجديد، وحيث تُلوّح لي أوراق الشجرة برقّة وهي تتماوج مع النسيم الصباحي المنعش. قد يكون الفجر مؤذناً بيوم حار أو بصباح ضبابي مفرط البرودة عندما أنفث أنفاسي وأراها أمامي تستحيل ضباباً كثيفاً، ولكن بعيداً عن كل الإنشغالات والهموم يظل بمقدوري أن أتحسّس الكثير من المعنى فيما سيؤول إليه بقية ذلك اليوم وعلى نحو ثابت لاتطاله الشكوك أو الهواجس.

ثمة شجرة أرجونا قديمة عملاقة في منزلي بالعاصمة دلهي، وبطريقة

ما أرى أقدامي تقودني دوماً نحو تلك الشجرة متى ماتمشّيت في حديقة منزلي، وفي العادة تكون هذه الشجرة محمّلة بأقراص العسل كما أنها موطن لمئات الأطيار وبخاصة البيغاوات منها. إن الكرامة والجمال والقامة الشامخة لهذه الشجرة تذكّرني دوماً بشموخ أبي، وغالباً ماتكون لي حوارات صامتة مع هذه الشجرة، وقد حصل وكتبت مرة القصيدة التالية عندما جال بخاطري ماالذي ستقوله لي شجرتي العزيزة لو كان بمقدورها أن تبوح لي بمكنونها أزائي:

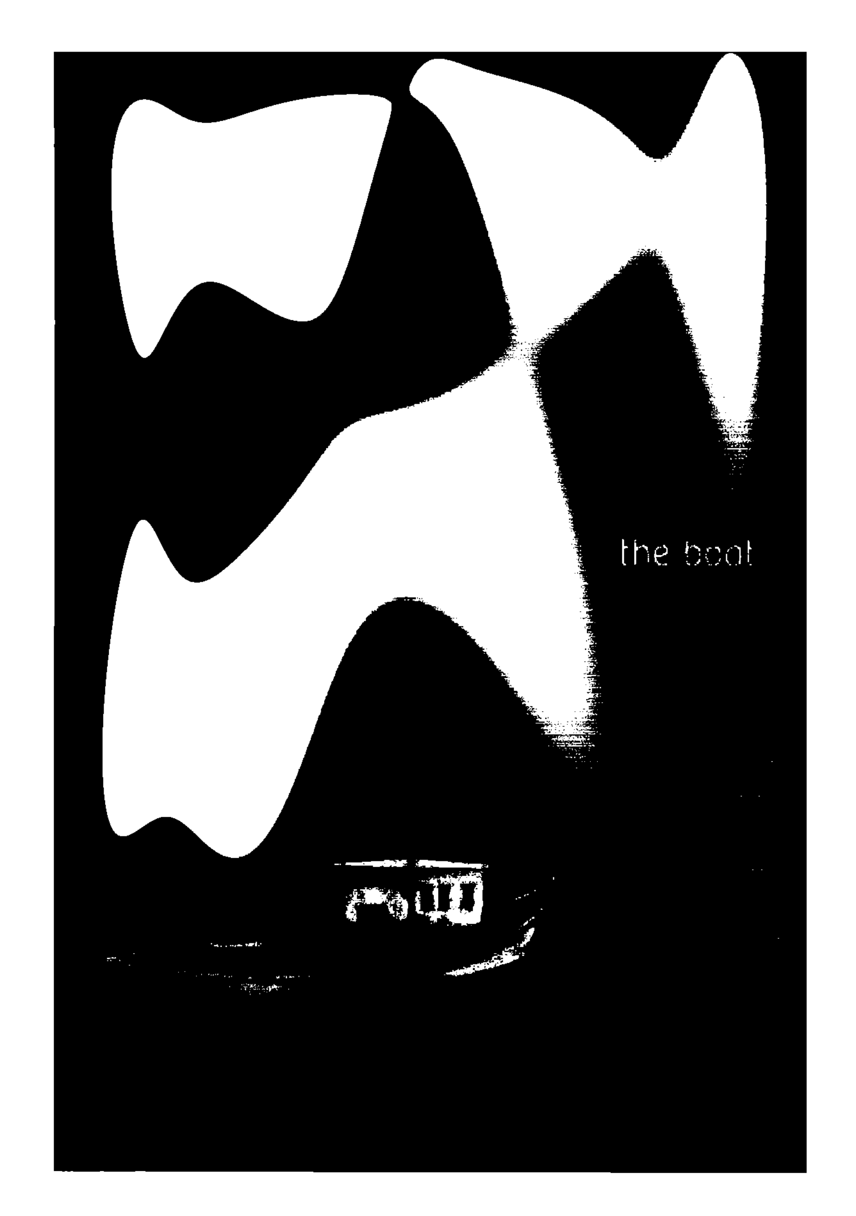
أوه صديقي كلام
تجاوز عمري المائة من السنوات مثل أبيك وأمّك
تتمشّى صباح كل يوم لساعة من الزمن
أراك أيضاً في الليالي التي يكون فيها القمر بدراً
تتمشى وأنت تبدو كمن يطيل النظر والتفكير
أعلمُ صديقي الأفكار التي تجول بعقلك
«ماالذي يمكنني أن أمنحه بعدُ؟»

الشجرة الشامخة بمنزلي

وفي كل مرة إندفعت فيها بممارسة عادتي في التمشّي الصباحي، وأينما قادتني حياتي، فغالباً ماأفكّر في أبي زين العابدين فأرى بعين عقلي رجلاً بسيطاً متواضعاً لم تفترّ همّته - حتى بعد أن بلغ من العمر عتياً - عن أداء مشيته الصباحية والإطلالة على بستانه الصغير العامر بأشجار جوز الهند، وأتخيّل أبي اليوم في حدود ماتبلغه قدرتي التخييلية فأراه بعد ساعة من إنطلاقه في مشيته الصباحية يلتقي متعهّد الرعاية بالبستان الذي كان هو الآخر قد إنطلق للتو نحو البستان، وعندما يلتقي الإثنان يلقيان التحية على بعضهما بحرارة بالغة. ربما يجلس أبي زين العابدين

في مكان ما لبرهة من الزمن في حين يمضي المتعهّد ليتسلّق شجرة من أشجار جوز الهند بعد أن يكون قد إختار نصف دزينة من ثمارها فيمضي في قطعها واسقاطها على الأرض بضربة واحدة من سكينته، ثم سرعان مايهبط الرجل نحو الأرض ليجمع تلك الثمار الساقطة ويرتبها في حزمة أنيقة. يجلس الرجلان الآن مع بعضهما وهما يُبديان علامات الودّ والصداقة الحميمة ثم يتحادثان بشأن حال الأشجار ويحدقان في السماء ثم ينصرف حديثهما نحو الأمطار والحشرات وموضوعات أخرى تختص بتربة الأرض، وفي نهاية المطاف يجمع زين العابدين بعضاً من ثمار جوز الهند ويقول وداعاً لصديقه ثم يبدأ رحلة عودته إلى البيت، وفي طريق عودته سيمنح بعض ثمار جوز الهند حتماً لجيرانه وآخرين أيضاً، أما الباقي من الثمار فسيجد طريقه إلى أطباق الكاري والصلصات التي تعدّها أمي.

لم أزل حتى اليوم أذكر جلوسي لتناول وجباتنا البسيطة واستطابتي العظمى لصلصة جوز الهند اللينة القشدية الدسمة التي إعتادت أمي أن تدهن بها طبقة الخبز الذي نتناوله، ولازال طعم تلك الوجبة عالقاً بفمي حتى بعد مضي سنوات عديدة، ومايجعل تلك الوجبات تبدو أكثر حلاوة اليوم هو علمي الراسخ بمدى مااحتوته من حب أمي وأبي وعملهما الشاق النزيه والمشرّف.


the boat

القارِب

أثناء سنوات معيشتي في جزيرة راميسوارام وبينما كنت أجتاز أطوار النمو لأغدو يافعاً كان البحر على الدوام عنصراً رئيسياً في رسم صورة حياتنا: تيارات المدّ المصاحبة له، واصطفاق موجاته، وصوت القطارات العابرة فوقه على جسر بامبان، والأطيار المحلّقة في أجوائه – هذه كلها ستظل دوماً لصيقة بذكريات طفولتي، وبصرف النظر عن الوجود الجبار الذي يفصح عنه البحر فإنه كان مصدر رزق وفير لنا ولجيراننا على السواء حتى ليمكن القول أن كل عائلة كانت لها ثمة رابطة ما مع البحر سواء كانت تمتهن الصيد أو تمتلك قارباً يشق عباب البحر.

لم يكن أبي إستثناء بالطبع؛ فقد عمل مُشغّلاً لعبّارة تأخذ الناس رواحاً ومجيئاً بين جزر (راميسوارام) و(دانوشكودي) التي تبعد عن بعضها حوالي الإثنين والعشرين كيلومتراً، ولازلت أذكر حتى يومنا هذا الوقت الذي قدحت فيه فكرة إمتلاك قاربٍ في عقل أبي وكيف مضى في بناء ذلك القارب بعزيمة شُجاعة.

كانت راميسوارام منذ القدم وجهة حجّ مهمة؛ إذ يسود إعتقاد بأن

راما[٣] Rama حلّ في هذه المنطقة وبنى فيها جسراً باتجاه لانكا وهو في طريقه لإنقاذ سيتا[٤] Sita، وقد كُرّس معبد راميسوارام للإله شيفا[٥] Shiva ويحتوي المعبد على رمز قضيبي Lingam [٦] شكّلته سيتا بيديها وخصّته برعايتها الكاملة. تخبِرُنا بعض سرديات رامايانا[٧] Ramayana

---

٣- راما: إله هندوسي وبطل شجاع تنسّب إليه الملحمة الهندية المشهورة (الرامايانا) وهو زوج سيتا وقد استطاع انقاذها بمساعدة الإله القرد (هانومان) من الشرير، وله قصص كثيرة يقدسّها الهندوس ومازالت مشهورة حتى زمننا هذا في الهند. (المترجمة)

٤- سيتا: آلهة هندوسية تعدّ زوجة راما طبقاً للتقاليد الهندوسية كما تعتبر مثالاً للمرأة المثالية الكاملة في الدانة الهندوسية. (المترجمة)

٥- شيفا: أحد أهم الآلهة في الديانة الهندوسية وغالباً مايدعى الإله المسيطر أو الأعلى. (المترجمة)

٦- لنغام: مفردة هي بمثابة رمز أو إشارة إلى القضيب الذكري وتدعى أيضاً فالوس Phallus، وتمثل تجريداً رمزياً أيقونياً للذات الإلهية الهندوسية المقدسة التي يمثلها شيفا. تستخدم رمزاً للتعبد في المعابد الهندوسية كما تعدّ رمزاً للطاقة والقدرة طبقاً للتقاليد المجتمعية الهندية. (المترجمة)

٧- رامايانا (ملحمة الإله راما): هي أوديسة الهند في تأريخ الأدب الأسطوري. كتِبت حوالي القرن الثالث قبل الميلاد وهي أشهر أساطير الهند وأحبها إلى النفوس وتتناول حياة بطل إسمه راما نفاه أبوه في غابة الشياطين حيث لقي من المصائب والأهوال ألواناً شتى ونشب صراع بينه وبين رافنا ملك الشياطين الذي تمكن من خطف زوجته سيتا، فظلت تنتظر زوجها صابرة طاهرة لا تستسلم ليأس أبداً. يعتبر الهندوسي الرامايانا كتاباً مقدساً، وهو حين يقرأ الأسطورة إنما يشعر متعة أدبية وإرتقاء أخلاقياً؛ إذ تطهره هذه القراءة من أوزاره جميعاً بحسب المعتقدات الهندوسية. (المترجمة)

أن (راما) و(لاكشمانا) و(سيتا) نزلوا بهذا الموقع طلباً للصلاة والتضرّع إلى الإله شيفا وهم في الطريق إلى (أيوديا) قادمين من (لانكا).

إعتاد القادمون إلى بلدتنا على المرور ببلدة دانوشكودي كجزء متمّم لرحلة حجّهم؛ إذ تعتبرُ السباحة في ساغارا - سانغام طقساً مقدّساً. إن سانغام هو ملتقى خليج البنغال بالمحيط الهندي، أما دانوشكودي فهي موصولة اليوم بطريق بري وبات من المعتاد أن تأخذ السيارات الكبيرة الحجيج إليها، ولكن في أيام يفاعتي المبكرة فإن العبّارة كانت وسيلة جيدة في بلوغ الجزيرة.

إعتزم أبي أن يبدأ عملاً في عبّارة لأجل تعزيز دخله الضئيل؛ لذا شرع في بناء القارب المطلوب بنفسه على ساحل البحر، وربّما مثّلت مراقبتي للقارب وهو يستحيل هيكلاً مكتملاً من قطع الخشب والمعدن ولوجي الأول في عالم الهندسة: تمّ شراء الخشب المطلوب ومراكمته قطعة فوق قطعة، وحضر إبن عمّي أحمد جلال الدين ليساعد أبي في صناعة القارب الموعود. كنت كلّ يوم لاأطيق الإصطبار حتى يحلّ الوقت الذي أتمكّن فيه من الذهاب إلى الموقع الذي يجري فيه تصنيع القارب حيث كانت ألواح طويلة من الخشب تقطّع إلى الأشكال المطلوبة وتُجفّف ثم يتمّ تنعيم أسطحها وتُربَط معاً، وكانت حرائق الغابات قد جفّفت الخشب الذي سيُستخدم في هيكل القارب وحواجزه الداخلية، وشيئاً فشيئاً راح هيكل القارب يتشكّل أمام أنظارنا وسأتعلّم لاحقاً في حياتي العملية وبعد سنوات كثيرة كيف يمكن صناعة الصواريخ والمقذوفات كما سأتعلّم كيف تمثّل الرياضيات المعقدة والبحث العلمي الأساس الصلب لهذه الأعاجيب الهندسية، ولكنّ مرأى قارب يكتمل تصنيعه على ساحل البحر يظلّ أعجوبة ساحرة فريدة من نوعها، ترى

هل ثمة من يخالجه الظن أن ذلك القارب لم يكن لحظة مهمة ومفصلية في حياتنا؟

خلّف بناء القارب أثراً مهماً للغاية في روحي ولكن بطريقة غير معهودة: فقد جلب بناء القارب إبن عمي أحمد جلال الدين وأدخله حياتي. كان إبن عمّي أكبر مني بكثير ولكن برغم هذا إنعقدت بيننا أواصر صداقة متينة بعد أن أدرك إبن عمي الرغبة الجامحة المتأصلة بداخلي في التعلّم والتساؤل المستديمين وكان حاضراً دوماً ليعيرني أذناً مصغية لما أقول وليمدّني بكلمات النصح الثمينة. كان أحمد جلال الدين متمكّناً من القراءة والكتابة بالإنكليزية ولطالما تحدّث إليّ بشأن العلماء والإختراعات والأدب والطب، وقد أتاحت فرصة مشاركته المشي في شوارع راميسوارام أو على ساحل البحر - حيث كان يجري بناء قاربنا - لعقلي أن يبدأ في التعامل مع الأفكار والطموحات النامية.

أصاب عمل أبي في نقل الناس بالقارب نجاحاً عظيماً، ووظّف أبي بعض الرجال لتشغيل القارب وبات معتاداً أن تستخدم جماعاتٌ من الحجيج هذه الخدمة في الوصول إلى دانوشكودي، وكان ثمة أيامٌ أتيح لي فيها التسلل إلى الجموع والجلوس بين طاقم مشغّلي القارب وهم يديرون دفّته باتجاه راميسوارام وإليها، وفي تلك الأيام تناهى لأسماعي حكاية راما وكيف بنى الجسر الموصل إلى لانكا بمعونة جيشه من القردة!! وكيف إسترجع سيتا وتوقّف في راميسوارام ثانية لأجل تقديم كفارة نظير قتله رافانا Ravana، كما سمعت حكاية هانومان Hanuman وكيف مضى لأجل ان يعود برمز قضيبي كبير (لانغام) لكنه تأخر كثيراً فما كان من سيتا إلا أن تبني بيديها رمزاً قضيبياً عظيماً لعبادة الإله شيفا. سمعتُ هذه الحكايات وأمثالها وهي تُروى حولي

بكيفيات وأشكال متباينة على ألسنة الناس الذين يستخدمون خدمة العبّارة التي يديرها أبي، ومن الطبيعي أن يكون طفلٌ صغير مثلي موضع ترحيب وحفاوة بين جموع الكبار ولن يعدم دوماً من يروي له حكاية ما أو يشاركه قصة حياته والأسباب التي دعته للذهاب في رحلة الحجّ تلك.

هكذا مرّت السنون إذن، وقد تعلمت من مدرستي ومعلّميّ وأحمد جلال الدين وآخرين أشياء كثيرة ولكن لم يكن القارب والناس الذين تنقّلوا بوساطته بأقل أهمية من كلّ ماسبق، وعلى هذا النحو مضت أيامي وأنا أتنقل بين موجات البحر ورمال الشاطئ، أو بين الضحك وسماع الحكايات، ثم حلّت بنا كارثة أحد الأيام: غالباً ماتضرب الأعاصير الحلزونية الهوجاء خليج البنغال، وتمثل أشهر نوفمبر (تشرين ثان) ومايو (أيار) نقطة الذروة لهذه الأعاصير، و لم تزل عالقة بذاكرتي تلك الليلة التي ضرب فيها إعصار حلزوني المنطقة. كانت الريح تغدو أسرع فأسرع حتى إستحالت عاصفة مزمجرة ذات عواء مخيف يبعث الرهبة وكنّا نسمع صوت صراخ الريح العاصفة وهو يصمّ آذاننا فيما كانت الريح تقتلع الأشجار وكل شيء آخر يقف في طريقها وتطوّح بها بعيداً، ثمّ سرعان ماهطل المطر بغزارة. كان علينا بالطبع أن نأوي لمنازلنا مبكرين تلك الليلة و لم يكن حينذاك ثمة كهرباء في منازلنا بل كانت شعلات القناديل النفطية بالكاد تستطيع أن تديم توهجها وسط الظلمة الحالكة. تكوّمنا إلى جانب بعضنا تلك الليلة العاصفة في إنتظار أن يمر الإعصار بسلام بينما كانت الريح المجنونة تزمجر خارجاً والمطر يتدفق بغزارة لم نشهد مثيلها من قبل. كانت أفكاري التي تجول بعقلي تأخذني مرة بعد أخرى نحو البحار المفتوحة، ومضيت أتساءل: هل

ثمة أحد ما عالق فيها؟ ومالذي سيبدو عليه الوضع فيما لو علق أحد ما وسط عاصفة كهذه وهو بعيد عن أحضان أمه الدافئة؟

بعد أن خمدت العاصفة صباح اليوم التالي شهدنا معا لم الدمار الواسع الذي حلّ بكل شيء حولنا: الأشجار والمنازل والمزارع أقتلعت جميعها من الأرض وتمّ تدميرها بالكامل، واختفت الطرقات تحت الماء بعد أن حملت حطامها رياح عاتية تجاوزت سرعتها المائة ميل في الساعة، ولكن الخبر الأسوأ بين كل الأخبار هو ذلك الخبر الذي تلقيناه كمن يتلقى ضربة صاعقة على معدته: إختفى قاربنا و لم نعثر له على أي أثر، وعندما أستذكر اليوم تلك الليلة العاصفة أدرك تماماً أن أبي ربما علم ماسيؤول إليه أمر القارب تلك الليلة ولكنه إنتظر بصبر عظيم مرور العاصفة بسلام. كان أبي قد شهد في حياته الكثير الكثير من الأعاصير والزوابع الحلزونية وماكانت تلك العاصفة الهوجاء سوى واحدة أخرى في سلسلة الأعاصير التي شهدها في حياته وقد حاول بأقصى مايستطيع من جهد أن نحصل - نحن أطفاله - على قسط مريح من النوم و لم يشأ أن يربكنا بما كان يجول بخاطره من أمور خطيرة مقلقة. في الصباح الباكر من اليوم التالي وبعد أن رأيت وجه أبي الشاحب والهموم تطلّ من عينيه حاولت جاهداً أن أجمع افكاري وأرتبها، وقد إنتحبت حينها - بعقلي فحسب - ورثيت قاربنا الضائع الذي فعلت به العاصفة الأفاعيل القاسية وتركته هشيماً، وشعرت حينها كما لو أن شيئاً صنعتُه بيديّ قد طُوّح به عالياً في الهواء ثم تُرِكَ ليتهشّم على الأرض بقسوة ومن غير إكتراث يذكر.

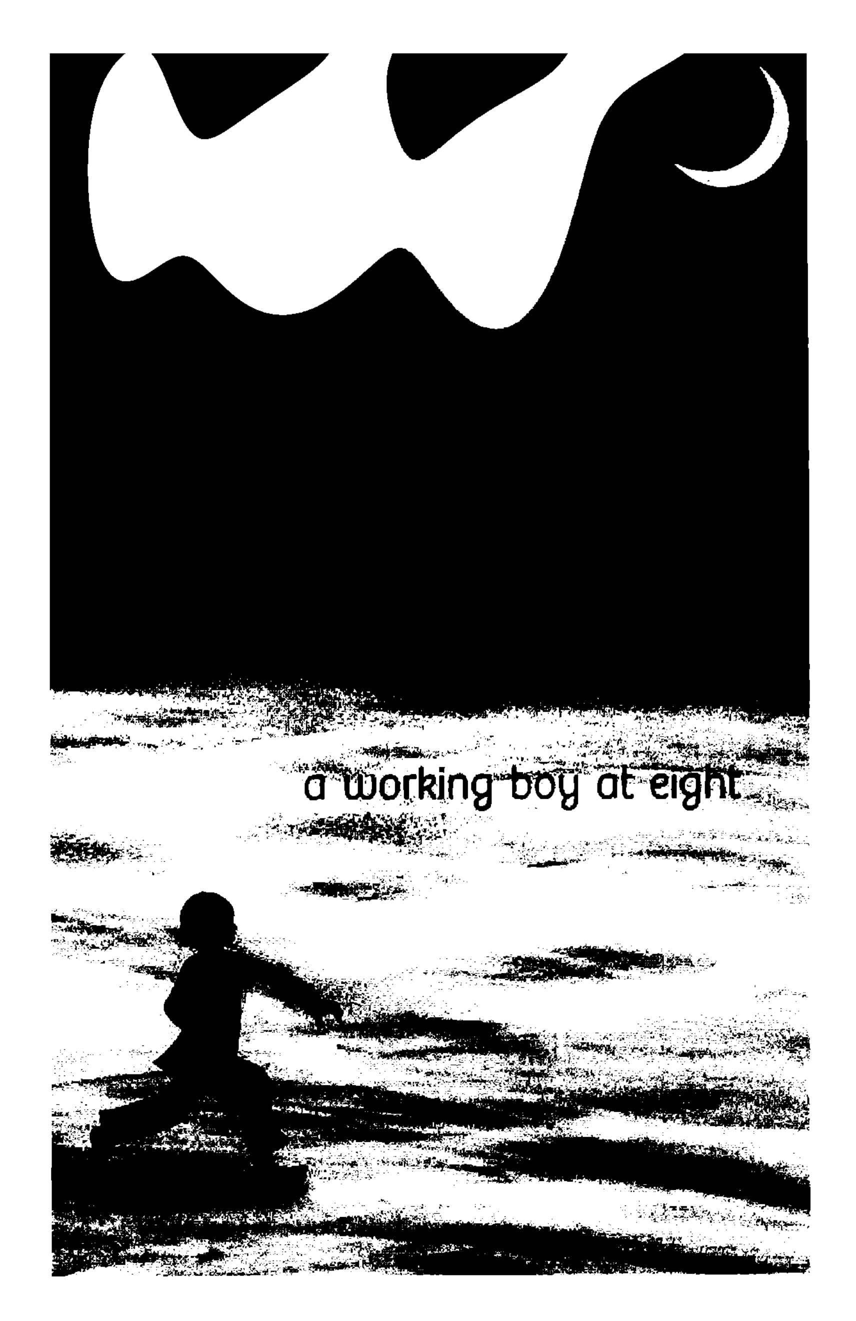
كان أبي رواقياً عنيداً وقد عملت رواقيته على جعلنا نجتاز تلك المحنة بنجاح؛ لذا حصلنا بعد وقت قصير للغاية على قارب جديد وتمّ إستئناف عملنا في نقل الناس بواسطة القارب، وعاد الحجيج والسيّاح

لركوب قاربنا كما عاد المسجد والمعبد ليزدحما بالمتعبّدين وراحت الأسواق تزدحم بالمتبضعين من النساء والرجال مثل سابق عهدها.

عادت الأعاصير الحلزونية والزوابع لتضرب منطقتنا مراراً بعد تلك الحادثة غير أنني تعلّمت التأقلم - بل وحتى النوم - وسط تلك الأعاصير، وقد حصل بعد أعوام كثيرة لاحقة أن ضرب إعصار مدمّر المنطقة عام ١٩٦٤ عندما لم أكن أقيم وقتها في راميسوارام وتسبب ذلك الإعصار هذه المرة في حمل جزء من أرض دانوشكودي والذهاب بها بعيداً كما إختفى في الوقت ذاته قطار مع راكبيه العديدين من الحجيج عندما كان يعبر جسر بامبان وقت الإعصار. تغيرت جغرافية المنطقة بعد ذلك الإعصار المريع وغدت بلدة دانوشكودي منطقة شبحية و لم تستعد أبداً معالمها التي عُرِفت بها قبل ذلك الإعصار، و لم تزل بعض بقايا البنايات المدمرة ماثلة في المنطقة حتى اليوم كشواخص حية تذكّر بإعصار عام ١٩٦٤ وآثاره المدمرة.

فقد أبي قاربه للمرة الثالثة في إعصار ١٩٦٤ وكان لزاماً عليه إعادة بناء القارب مرة أخرى، و لم يكن بمستطاعي مد يد العون إلى أبي بأية وسيلة عملية لأنني كنت حينها قد غادرت بلدتنا إلى أماكن بعيدة، وعندما كافحت لاحقاً بضراوة لأجل بناء الصاروخ الحامل لعربة إطلاق الأقمار الصناعية (SLV)، أو عندما إنخرطت في مشروع بناء مقذوفات (بريثفي) و(أغني)، أو عندما توقفت العدّادات التنازلية وإطلاقات الصواريخ، أو عندما كانت الأمطار تغمر مواقع إطلاق الصواريخ المشيدة في خليج البنغال بمنطقة (ثومبا) أو (تشانديبور)، في كل هذه المواقف وغيرها الكثير كنت أستحضر على الدوام النظرة المرتسمة على وجه أبي في اليوم التالي للعاصفة.

كانت تلك النظرة إعترافاً كاملاً بسطوة الطبيعة وبمعرفة ماالذي يعنيه العيش بالقرب من البحر والحصول على الرزق منه، وقد تعلّمت أنا وعلى نحو شخصي محدّد بأن ثمة قوة ذات طاقة عظمى يمكن لها أن تسحق طموحاتك وأحلامك برمشة عين، وأن الوسيلة الوحيدة للبقاء والإستمرارية هي بأن تقف بشجاعة في وجه مشاكلك المعوّقة وأن تعيد بناء حياتك.


a working boy at eight

طفلٌ يعمل وهو في الثامنة

يؤتى إليّ كل صباح بأكوام من الصحف المكتوبة باللغتين الإنكليزية والتاميلية، وخلال أسفاري العديدة خارج الهند أرغب البقاء دوماً في حالة تواصل مع الأخبار الخاصة بالهند من خلال خدمة (الأونلاين) الألكترونية التي تمكّنني من قراءة الموضوعات الصحفية والإفتتاحيات في الصحف العالمية المختلفة ويدهشني دوماً الكم الثري للمعلومات التي يمكن لكلّ إمرئ الحصول عليها بضغطة من أصبعه. إن كوني مختصاً وعلى صلة وثيقة بالهندسة والعلوم خليق بأن يجعل المسيرة الحافلة للتقنية أمراً لايبعث الكثير من الدهشة في نفسي، ولكن عندما أقارن حيواتنا اليوم مع حيوات الذين عاشوا قبل سبعين سنة مثلاً في بلدة صغيرة تقع جنوب الهند فإن الفرق الشاسع يبدو مذهلاً حتى بالنسبة لمختص مثلي.

ولـدْتُ في العام ١٩٣١، وعندما بلغت الثامنة إندلعت الحرب العالمية الثانية وأعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا النازية، وبرغم معارضة الكونغرس الهندي فقد وجدت الهند نفسها منخرطة في تلك الحرب لكونها كانت آنذاك مستعمرة بريطانية. سجّل الجهد الهندي أرقاماً قياسية في تلك الحرب من خلال الأعداد الهائلة للجنود الهنود الذين تم نشرهم في مناطق القتال المختلفة حول العالم بأكمله، ولكن برغم

الحرب بقيت الحياة الهندية هادئة لم تمسسها أهوال الحرب وبخاصة في الأطوار الأولى للحرب، وكانت المناطق الجنوبية من الهند حيث تقع بلدتنا راميسوارام هي الأكثر هدوءً بين مناطق الهند قاطبة في فترة الحرب وأهوالها الجسام.

كما ذكرت سابقاً كانت راميسوارام خلال الأربعينيات (من القرن العشرين) بلدة صغيرة يعمّها الهدوء ولاتنتعش فيها مظاهر الحيوية والنشاط إلا مع مقدم الحجيج، وكان قاطنوها في الأعم الغالب تُجّاراً صغاراً أو حرفيين يديرون أعمالاً صغيرة. فرض المعبد المقام في بلدتنا حضوره وهيمنته عليها بالرغم من وجود مسجد وكنيسة فيها أيضاً، وقد إعتاد سكان البلدة على ممارسة أعمالهم بسلام ودِعة وإذا ماإستثنينا القلاقل الإعتيادية الصغيرة التي كانت تنشب أحياناً مثلما هو الحال في أية بلدة أو قرية أخرى فلاأذكر أن شيئاً إستثنائياً أو ذا أهمية قد حصل يوماً في بلدتنا.

كانت الصحف في تلك الأيام هي المصدر الأوحد للمعلومات بشأن مايحصل في العالم خارج بلدتنا، وحصل يوماً أن أدار إبن عمّي شمس الدين الوكالة الخاصة بتوزيع الصحف، وقد أثّر الرجل – إلى جانب إبن عمي الآخر جلال الدين – تأثيراً عظيماً في حياتي المبكرة، وعلى الرغم من أن شمس الدين كان يقرأ ويكتب غير أنه لم يسافر كثيراً كما لم ينل أي قسط من تعليم عالٍ، ومع هذا فإن تأثيره العظيم فيّ وتشجيعه لي بأشكال عدّة كانا هائلين إلى حدّ بات معه شمس الدين المشكاة المضيئة الموجّهة لي في حياتي. تمكن هذان الرجلان – شمس الدين وجلال الدين – من فهم أعمق أفكاري وخلجات روحي حتى من غير أن أكشف عنها، وبالنسبة لي فقد كانا رجلين بالغين إستطاعا المضي إلى

أبعد من محض الحدود الضيقة لحياتيهما ومهنتيهما اليوميتين وتمكّنا من إختراق الحواجز والإطلالة على عالم أوسع ممّا كان يراه الآخرون.

كانت وكالة توزيع الصحف التي يديرها شمس الدين هي الوكالة الوحيدة في راميسوارام، وكان ثمة ألفٌ من السكّان القادرين على القراءة والكتابة فيها وقد تولّى شمس الدين مهمة إيصال الصحف اليومية إليهم جميعاً. حملت الصحف آنذاك وفي العادة أنباءً عن حركة الإستقلال التي كانت تتقدم بعزيمة نحو تحقيق إستقلال الأمة الهندية، وكانت مفردات الأخبار آنذاك تُقرأ وتُناقش مع إحساس طاغٍ بالفخر يملأ الجميع، وكان ثمة أخبار أخرى أيضاً عن جبهات الحرب وهتلر والجيش النازي إلى جانب أخبار خفيفة مسلّية تبعث الإسترخاء في نفس القراء مثل قراءة الحظوظ في الأبراج الفلكية أو معرفة معدلات تداول الذهب والمعادن النفيسة الأخرى، الخ من تلك الاخبار التي كان القُرّاء يقبلون عليها بشغف عظيم، وكانت الصحيفة التاميلية المسمّاة (Dinamani)(٨) هي الصحيفة الأكثر شهرة بين سواها من الصحف في تلك الأيام.

كانت الوسيلة التي تصل بها الصحف بلدة راميسوارام فريدة من نوعها للغاية: كانت الصحف تصل محمّلة في القطار الصباحي ثم يتمّ الإحتفاظ بها في محطة القطار، ومن هناك كان ينبغي جمع الصحف وإرسالها إلى كل المشتركين وهذا هو العمل الذي أداره شمس الدين وتمكّن من أدائه وبغير أي جهد يذكر، ولكن مع إندلاع الحرب العالمية الثانية لم نعُد معزولين

٨- Dinamani: مفردة سنسكريتية تعني (جوهرة النهار) وكانت عنواناً للصحيفة الهندية التي تأسّست عام ١٩٣٣ وأدارتها مجموعة الصحافة الهندية الجديدة. (المترجمة)

عن العالم وقد أثّرت تلك الحرب فيّ كما أثّرت في عمل توزيع الصحف بطريقة جديدة بالغة الغرابة؛ إذ فرضت الحكومة البريطانية خلال الحرب عدداً من الشروط وتعليمات التقنين على جميع البضائع وباتت البلاد في حالة طوارئ سائدة، وقد عانت عائلتنا الكبيرة من جراء حالة الطوارئ تلك مصاعب حادة في توفير المتطلبات العائلية: الطعام، الملابس، إحتياجات الأطفال، الخ وباتت كل المتطلبات عصية على الشراء. كنّا في عائلتنا خمسة أبناء وبنات بالإضافة إلى عائلات أعمامي، وتوجّب على كلّ من جدّتي وأمّي أن تستفيد من كلّ مصدر متاح إلى الحدّ الأقصى الممكن بغية جعل الجميع يحصلون على القدر الأدنى المطلوب من الطعام والملابس وعلى النحو الذي يُبقي كل فرد في العائلة بصحة جيدة.

عندما راحت أهوال الحرب تطال عائلتنا جاء شمس الدين بعرض أدهشني وملأني غبطة: كانت إحدى المترتّبات على الحرب وظروفها الحاكمة أن محطة القطار في راميسوارام نُقلت إلى مكان بعيد عن بلدتنا، وحينذاك راح شمس الدين يتساءل عن الكيفية التي سيتعامل بها مع الصحف التي تصله وكيفية تفريقها ورزمها وتوزيعها على المشتركين الذين ينتظرون بشوق عارم جرعتهم اليومية من الأخبار؟ وجد شمس الدين حلاً لهذه المعضلة: كانت الصحف يُحتفظ بها وهي مرزومة ومرتّبة في القطار، وبينما كان القطار يتأهب للإنطلاق في مسار راميسوارام - دانوشكودي يمكن حينئذ رمي الصحف من القطار على الأرض؛ وهنا يكمن دوري بالضبط بعد أن منحني شمس الدين عملاً ممتعاً يتلخّص في تلقّف الصحف المرزومة المرمية من القطار المتحرّك ومن ثم توزيعها على المشتركين في البلدة.

لم تكن ثمة حدود لحماستي في العمل، ومع أن عمري لم يكن يتعدّى

الثامنة غير أنني غدوت مساهماً وبطريقة ذات معنى عملي واضح في تعزيز دخل عائلتي، وقد حصل ولأيام عديدة سابقة لعملي ذاك أن كمية الطعام التي تضعها جدّتي وأمي على مائدة طعامنا باتت أقل بكثير من ذي قبل بعد أن يتمّ تقسيم الطعام بيننا جميعاً. كان الأطفال ينالون حصصهم من الطعام أولاً على الدوام ولاأذكر أن أياً من أخوتي أو أخواتي بات الليل جائعاً، ومن الواضح أن النساء كنّ يقتصدن في طعامهن بغية الإيفاء بمتطلبات طعام الأطفال؛ لذا قبلتُ على الفور عرض العمل الذي جاء به شمس الدين بكل إبتهاج وأريحية.

كان على عملي الجديد أن يفي بمتطلبات جدولي الدراسي النظامي، وكان على دراستي ومدرستي أن تمضيا على ذات النسق السابق وتطلّب الأمر مني أن أقوم بمهمة نقل الصحف وتوزيعها وسط الفراغات الزمنية المتاحة بين واجباتي الأخرى. كنت منذ صغري قد أبديت ميلاً مبكراً نحو الرياضيات؛ لذا رتّب أبي أموري بحيث يكون بمستطاعي الحصول على دروس إضافية لدى معلّم الرياضيات، وقد إشترط المعلم عليّ - إلى جانب أربعة آخرين من التلاميذ معي - أن أذهب لمنزله عند الفجر بعد أخذ حمّام صباحي، وهكذا وعلى مدى سنة كاملة إستغرقتها الدروس الإضافية كان عليّ أن أبدأ يومي في الوقت الذي تعمّ فيه الظلمة الحالكة المكان خارج المنزل. كانت أمي هي من يوقظني في تلك الساعة المبكرة جداً من اليوم وكان عليها هي أن تنهض قبلي لكي تعدّ لي حمّامي ثم كانت تساعدني في الإستحمام قبل إرسالي إلى منزل معلّمي، وهناك كان عليّ أن أقضي ساعة في الدراسة لأعود بعدها إلى المنزل في الساعة الخامسة فجراً وحينها أجد أبي مُتأهباً لمرافقتي إلى المدرسة العربية القريبة من منزلنا - تلك المدرسة التي تعلّمت فيها القرآن الشريف.

بعد إنتهاء درس القرآن الشريف كان عليّ أن اسرع نحو محطة القطار وهناك كنت أبقى منتظراً وأنا أرفع ساقاً واخفض أخرى على التناوب كل حين فيما كانت عيناي وأذناي تترقّبان أية إشارة للقطار الآتي، والغريب في الأمر أن قطار مدراس - دانوشكودي قلما تأخر عن موعده المحدد بخلاف الوضع مع قطارات هذه الأيـام!!. كان عمود الدخان المندفع من القاطرة إلى الأعلى يبدو مرئياً من مسافات بعيدة ثم كان الصوت يأتي عالياً مترافقاً مع زمجرة راعدة، وفيما كان القطار يجتاز المحطة كان يتوجّب عليّ الوقوف في أفضل موقع متاح للإبقاء على عيوني مصوّبة بإتجاه ربطات الصحف المرزومة، وبطريقة محكمة مثل عمل الساعة كانت تلك الرزم تُرمى من القطار بإتجاه موقع محدد على أرضية المحطة ثم كان القطار يغادر مبتعداً وانا ألمح في غالب الأوقات شمس الدين الجالس في القطار وهو يلوّح لي بيديه، ثم كان القطار يبتعد قليلاً قليلاً مع خفوت صوت صفارته تدريجياً. حان الآن إذن دوري في توزيع الصحف: كنت أرفع رزم الصحف من الأرض وأوزّعها في ربطات تبعاً للمحلات التي ينبغي توزيعها فيها، ولمدة ساعة لاحقة كنت أذرع أزقة راميسوارام لأجل أن يحصل كل مشترك على صحيفته المنتظرة وسرعان مابتُّ قادراً على تشخيص الأفراد وسماتهم تبعاً لنوعية الصحيفة التي يقرأونها. كان معظم المشتركين ينتظرون قدومي بلهفة ليُسمِعوني كلمة أو إثنتين من آيات الشكر والإطراء تعبيراً عن مودّتهم واحتفائهم بي وكان البعض منهم يحضّني على الإسراع في العودة للمنزل لأجل ألّا أتأخر عن الإلتحاق بمدرستي، وأعتقد اليوم أن معظم القرّاء أحبّوا أن يستلموا صحيفتهم اليومية من قبل موزّع صحف صبيّ لم يتعدّ سنته الثامنة بعدُ.

تقع بلدة راميسوارام على الساحل الشرقي للهند؛ لذا فإن عملي في توزيع الصحف كان ينتهي مع حلول الساعة الثامنة صباحاً وحينها تكون الشمس قد إرتفعت عالياً في السماء، وكان عليّ حينها أن أسرع عائداً إلى المنزل حيث كانت أمي تنتظرني مع وجبة الفطور. كان أي فطور بسيط لايتعدّى بضع لقيمات سَيَفي بتسكين جوعي بعد عودتي إلى المنزل ساغباً متعباً، والحقّ أن أمي كانت تحرص كلّ الحرص على أن أتناول كل لقمة متاحة لي قبل أن أنطلق في رحلة الذهاب للمدرسة ولكنّ عملي لم يكن لينتهي عند ذلك الحدّ؛ فقد توجّب عليّ في المساء وبعد إنتهاء دوام المدرسة أن أمضي في جولات مسائية أطوف بها على زبائن شمس الدين لأجل جمع الإستحقاقات المالية التي بذمّتهم ومن ثمّ كنت ألتقي شمس الدين لأسلّمه تلك الإستحقاقات.

كنت في نهاية يوم عملي أتخذ مكاناً ما قريباً من البحر لأتنسّم عبير الهواء العليل بينما كان جلال الدين أو شمس الدين يفتح صحيفة اليوم: كنّا ثلاثتنا نحدّق بادئ الأمر في الخطّ الأسود العريض الذي كُتبت به كلمة (Dinamani) ثم يمضي أحد الشابين في قراءة عناوين الأخبار بصوت عالٍ وحينها كان العالم الخارجي يتسلّل ببطء وتؤدة إلى وعينا، وراحت كلمات وعِظات كلّ من غاندي وأعضاء الكونغرس الهندي وهتلر وبيريار إي. في. راماسامي[٩] تملأ الأجواء حولنا حتى بتنا نظنّ أنها تبقى عالقة في الهواء المسائي لأمد بعيد. كنت أتتبّع

٩- بيريار إي. في. راماسامي: سياسي وناشط إجتماعي هندي عاش في الفترة ١٨٧٩ - ١٩٧٣ ويعدُّ أحد المقاتلين الأفذاذ من أجل الحرية واستقلال الأمة الهندية. أسّس حركة (إحترام الذات) التي تدعى أيضاً (رافيندران) والتي تطوّرت لاحقاً إلى حزب سياسي بالإسم ذاته. (المترجمة)

الصور والكلمات في الصحيفة مستخدماً اصابعي ومتسائلاً ماالذي ينبغي أن يعنيه كون المرء جزءً من ذلك العالم الخارجي أو واحداً من تلك الشخصيات، وتخيّلتُ حينها أنني ربما سأذهب يوماً لزيارة المدن الكبيرة مثل: مدراس، بومباي، كلكتّا، ورحت أتساءل: ماالذي سأقوله لو حصل يوماً والتقيتُ رجلاً مثل غاندي أو نهرو؟ ولكن سرعان ماكانت أفكاري الحالمة تُقاطَعُ بصيحات رفقائي أبناء عمومتي المشاركين لي في تلك الجلسة، ثم كنا نتناول العشاء لاحقاً. كان لايزال أمامي ثمة واجب بيتي ينبغي أداؤه ومن المدهش أنّ صبياً بعمر الثامنة مثلي كان يمتلك ذلك القدر العجيب من الطاقة المدهشة، وعند التاسعة كنت آوي لفراشي وأغفو سريعاً ليقيني بأنّ واجباتٍ دراسية وعملية إضافية تنتظرني أنا الصبي العامل بعمر الثامنة.

إستمرّ هذا السياق اليومي في حياتي لما يقارب سنة كاملة، وخلال تلك السنة من عملي في توزيع الصحف في بلدتي غدوت أكثر طولاً وسُمْرة كما تعلّمت كيف أحسب بدقة المسافات التي يمكن قطعها عدواً وأنا متأبّط حزمة من الصحف لذا صار بوسعي توقيت موعد وصولي إلى أماكن محددة مختلفة في الوقت ذاته صباح كل يوم، وصار في قدرتي الذهنية الخالصة أيضاً معرفة كم يدين كلّ من المشتركين إلى شمس الدين وكذلك أسماء هؤلاء الذين لم يسدّدوا مابذمّتهم من إستحقاقات مالية يومية، ولكن الأهمّ من بين كل الأمور أنني تعلّمت أنّ كونك عاملاً عنى أن تكون مستعداً على الدوام لمواجهة مشقّات يومك بصرف النظر عمّا يمكن أن يعيقك عن أداء العمل المنوط بك: الواجبات المنزلية، الدروس الإضافية، الصلوات، الخ من الفروض ينبغي إنجازها كلها والفراغ منها في وقت مناسب كل يوم لأن البريد الذي يجلب

الصحف في قطار مدراس - دانوشكودي لن ينتظرني عند قدومه؛ إذن ينبغي أن أكون حاضراً في المحطة وفي الوقت المناسب وفي المكان المناسب للإمساك بأكداس رزم الصحف وهي تطير في الهواء. كانت تلك تجربتي الأولى في تحمّل مسؤولية أداء عملٍ ما والحفاظ على الوعد الذي قطعته لإبن عمّي شمس الدين ولاأزالُ حتى اليوم أراها الفترة الأكثر إمتاعاً في حياتي كلها وقد أحببت كلّ لحظة فيها على الرغم من الإجهاد الشاق الذي كنت أعانيه كلّ ليلة، ولطالما إمتعضت أمّي من تحمّلي لأعباء ذلك العمل الإضافي فوق كاهلي ولكني كنت أكتفي بهزّ رأسي والإبتسام في وجهها لأن معرفتي بأن المدخولات التي أحصل عليها من وراء عملي تساهم في تحسين ظروف معيشتنا إلى جانب يقيني بأن أمي كانت فخورة بي - من غير أن تبوح بذلك - لأنني آثرتُ أن أمارس دور رجل عامل وإن كنت في الثامنة فحسب - كل هذه الأمور جعلتني أمضي في حياتي مع إبتسامة رضا تملأ وجهي على الدوام.



ثلاثة قلوبٍ عظيمة تجد حلاً لمعضلة

بلدة راميسوارام – التي قضيت فيها طفولتي – جزيرة صغيرة تقع أعلى منطقة فيها على قمة تلّة تدعى «غادنامادانا بارفاثام» **(التي تعني الجبل الصغير باللغة التاميلية، المترجمة)**، وإذا ماوقفتَ على تلك المنطقة يمكنك أن ترى كامل بلدة راميسوارام وكامل الأرجاء الواسعة المحيطة بها – أشجار جوز الهند الخضراء التي تتمايل مع نسمات الهواء وهي تملأ الفضاء حولك في كل مكان، والبحر يلوح لك في الأفق البعيد، والشواهد الشامخة لمعبد راماناثاسوامي التي تكاد تلامس السماء. كانت راميسوارام بلدة هادئة على الدوام يعمل قاطنوها في صيد الأسماك أو في زراعة أشجار جوز الهند أو في أعمال السياحة المرافقة للحجيج الذين يؤمّون البلدة بسبب وجود المعبد فيها، ولطالما كانت راميسوارام واحدة من الأماكن المقدسة التي يؤمّها الحجيج الهنود وقلّما خلت البلدة من الحجيج أو السيّاح.

كانِ المجتمع المحلي في البلدة يتكوّن في معظمه من الهندوس يخالطهم بعض المسلمين – مثل عائلتنا – وكان ثمة بعض المسيحيين أيضاً، وقد إعتادت تلك الجماعات المحلية أن تتعايش مع بعضها في رضا وسلام و لم تكن إنقسامات وتقلبات العا لم خارج بلدتنا تجد لها منفذاً داخل تلك المجتمعات المحلية المتعايشة إلا في إستثناءات قليلة

لاتكاد تذكر، وقد حملت الأنباء في أحايين كثيرة أخباراً عن النزاعات التي تجري في أماكن كثيرة بعيدة غير أن نسق الحياة المسالمة في بلدتنا حافظ دوماً على صفائه الباعث على المتعة والممتد منذ أزمان بعيدة.

حافظ التناغم الهادئ لنسق العيش في بلدتنا على طبيعته دوماً؛ ولطالما أحبّ أبي أن يروي لنا كيف أنقذ أحد أجداده الأسلاف التمثال المقدّس لمعبد راماناثاسوامي، وتمضي الحكاية على النحو التالي: جرت العادة في يوم إحتفاليّ محدّد أن يتمّ إخراج التمثال المقدّس المحبوب (أو فيغراها كما يسمى في اللغة المحلية) خارج أسوار المنطقة المقدسة المعزولة sanctum sanctorum (**التي تسمّى قدس الأقداس طبقاً للتوصيفات التوراتية، المترجمة**) ليُطاف به حول حرم المعبد. كان ثمة عدد من الصهاريج تحيط بالمعبد وكان ينبغي أن يُطاف بالرمز المقدّس حول حافات تلك الصهاريج أيضاً، وحصل في إحدى جولات الطواف تلك وعلى نحو لم يعد أحد يذكر تفاصيله أن سقط الفيغراها المقدس في واحد من الصهاريج. أية مصيبة كانت!! تسمّر الناس في مواكب الطواف في أماكنهم رعباً وهلعاً وهم ينتظرون غضب الآلهة الذي سيحلّ عليهم قريباً لامحالة. واحد فقط من بين الجموع المذعورة بدا أنه تمالك نفسه و لم يخسر قدرة عقله وتماسك أعصابه – ذاك هو أحد أجدادي الأسلاف الذي لم يتوانَ أبداً عن القفز في جوف الصهريج وأخرج الفيغراها المقدّس بلحظة خاطفة فحاز من فوره على إمتنان الكهنة والقيّمين المسؤولين عن المعبد الذين أمطروه بوابل شكرهم لجميل صنيعه. نعم كان الرجل مسلماً، ومن المؤكد أيضاً أن الكثيرين من المتزمتين الدينيين المملوئين بإحساس النقاوة والطهرانية سيتملّكهم الغضب لمعرفتهم أن أيادي مسلمة غير مأذون لها قد لمست رمزهم

المقدّس، ولكنّ أياً من هذه الأحاسيس لم يُفصَح عنها أو يتمّ تداولها علانية بل على العكس: بات الجميع ينظر إلى الرجل بإعتباره بطلاً، وأعلِن لاحقاً في المعبد أن الرجل سيُكرّم كل سنة خلال إحتفاليات الطواف المقدسة تلك بتكريم يدعى Mudal Marayadai الذي يُعدّ تكريماً عظيماً نادراً يتوق إليه كل شخص هندوسي، ولكم أن تتصوروا قيمة التكريم إذا ماعلمتم بعد هذا أن المكرّم هنا رجل من غير الهندوس، وقد عنى الإعلان أن جدّي السالف سيكون أول من ينال ذلك التكريم المميز كل سنة خلال موسم الإحتفاليات الهندوسية، وقد عُمِل بذلك التقليد سنة بعد سنة واستمرّ مع أبناء ذلك الجد وأحفاده حتى أن أبي ناله التكريم أيضاً.

إستمر ذلك العيش المتناغم بين الناس في بلدتنا لسنوات لاحقة كثيرة، وكما ذكرت في فصل سابق فإن أبي كان يدير عبّارة تنقل الحجيج الطامحين لبلوغ بلدة دانوشكودي، وقد حصل أن إستخدم المعبد أيضاً عبّارة أبي في إنجاز متطلباته.

كان أبي إمام مسجد راميسوارام، وكان شخصاً مكرّساً يؤمن إيماناً علوياً مطلقاً وكاملاً بالقرآن وغرس كل العادات الفضلى للمسلمين المكرّسين في أطفاله وبالطبع في كلّ أفراد عائلته الآخرين، وبالنسبة إلى سكّان بلدتنا كان أبي يمثّل فيلسوفاً حكيماً أو مُوجّهاً مرشداً ولطالما سعى إليه الجميع طلباً لنصح أو إرشاد سواء في معضلة روحانية أم في غيرها من المعضلات. كان أحد أصدقاء أبي المقرّبين للغاية هو كاهن معبد راماناثاسوامي: باكشي لاكشمانا ساستري الذي لم يكن كاهن معبد وحسب بل كان شخصية متعلّمة كما كان ضليعاً خبيراً في المعرفة الفيدية Vedic **(شكل مبكر من السنسكريتية، المترجمة)**،

ولازلت أذكر سيماءه الكاملة حتى اليوم وكان يرتدي دوماً ملابس كهنة المعابد التقليدية وكان يخصّل شعره على الطريقة الإجبارية التي عرِف بها الكهنة البراهميون والمعروفة كودومي Kudumi **(البراهميون Brahmins هم الطبقة الأعلى بين الكهنة الهندوسيين، المترجمة)**. كان الرجل واحداً من أحبّ الناس وأكثرهم وداعة ولطفاً بين الذين رأيتهم في حياتي.

كان ثمة شخصية ثالثة أخرى لعبت دوراً عظيماً في الحياة الروحانية للمجتمع المحلي في بلدتنا الصغيرة - ذاك هو الأب بودال الكاهن الراعي للكنيسة الوحيدة في البلدة، وكان - مثل أبي وساستري - يُبدي عظيم الإهتمام بشؤون مرتادي الكنيسة كما كان يعلم تماماً أهمية الحفاظ على ذلك التناغم المعيشي والروحاني الكامل الذي عمّ بلدتنا منذ سنوات طويلة.

إن ذكرى هؤلاء الرجال الثلاثة الأفاضل والمتعلّمين لم تزل محفورة عميقاً في ذاكرتي، ويمكنني لليوم أن أرى الثلاثة ماثلين أمام ناظريّ: أبي في جبة الأمام وعمامته، ساستري في لباس الدوتي dhoti الخاص بالكهنة الهندوسيين، الأب بودال في لباسه الكهنوتي المعروف. إعتاد الثلاثة أن يجتمعوا مساء كل يوم جمعة في نحو الساعة الرابعة والنصف ليناقشوا أوضاع البلدة ومجريات الأمور فيها سواء كانت دينية أو عامة، وكان الناس يتوافدون لزيارتهم أحياناً أثناء تلك الجلسات متى ماكانوا يريدون حلّاً لمعضلة ما، وكان الثلاثة حريصين أن يُعلِم أحدهم الآخر بأي أمر يمكن له أن يعكّر صفو الأمن والسلام بين الناس كما حرصوا أن يجترحوا وسائل قادرة على تصفية الخلافات وسوء الفهم وعملوا بجدّ في الوقت ذاته على وأد الإشاعات قبل أن تتراكم في العقول

وتتخذ أبعاداً خطيرة. إن المتطلّب الأساسي والجوهري للسلام والذي يكمن في إدامة تواصل حيّ وفعّال مع أطياف الناس جميعاً هو ماعمل هؤلاء المسؤولون الدينيون الثلاثة على ترسيخه وجعله حقيقة حيّة ماثلة على أرض الواقع، وقد تناولت مناقشات الرجال الثلاثة طيفاً واسعاً من الموضوعات: حركة الحرية التي كانت تقود البلاد نحو إتجاه جديد بالكامل، وردة فعل الحكومة البريطانية تجاه صيحات القوميين المتطرفين والكيفية التي يمكن أن تؤثر بها ردة الفعل هذه على حياتنا – هذه كلها كانت بعضاً من الموضوعات التي أثّرت عميقاً في أولئك الرجال الثلاثة الذين أشاعوا جواً من التسامح وخففوا الكثير من الغلواء المتوقعة ودفعوا بالتناغم المجتمعي خطوات إلى الأمام عندما سمحوا لكلّ فرد في البلدة بالحديث إليهم بأي شأن من الشؤون ووقتما يشاء وفي حرية كاملة.

ثمة حادثة في طفولتي جعلتني أتعايش وأفهم طبيعة حقيقة السلام والوداعة التي كان يعيش سكان بلدتنا في ظلها: كنت حينذاك في حوالي الثامنة من عمري وأدرس في المرحلة الثالثة، وكان أصدقائي المقرّبون هم راماناداان ساستري وأرافندان وسيفابراكاسان. كان جميع الثلاثة هؤلاء براهميين وواضح أن رامانادان كان إبن الكاهن الهندوسي ساستري، وكنّا ثلاثتنا نعيش الحياة الإعتيادية المتوقعة من تلاميذ المدارس؛ إذ كنّا نقضي معظم أوقاتنا معاً في المدرسة أو خارجها، ومثل العادات السائدة بين الأصدقاء الخلّص لم نكن نشعر أن يومنا مكتمل لو حصل وتغيّب أحدنا عن الآخرين أو لم يشاركهم أدق التفاصيل الصغيرة لحياته – تلك التفاصيل التي غالباً ماتشيع في أوساط أطفال صغار بمثل أعمارنا، وفي المدرسة كنّا نجلس قريباً من بعضنا وكان رامانادان يشاركني المقعد الدراسي ذاته.

قبل أن أمضي في سرد تفاصيل الحادثة التي حصلت معي في المدرسة أحبّ أن أقدّم صورة لحال مدرستي التي لازلت أحمل عنها ذكريات جميلة لأيام البراءة والعفرتة والتعلّم. كانت مدرستي تدعى (مدرسة راميسوارام بانكايات الإبتدائية) وقد واظبت على الدوام فيها للسنوات ١٩٣٦ - ١٩٤٤. كانت مدرستي تقع قريباً من ساحل البحر و لم تكن البناية الأكثر قوة ومتانة في البلدة بالتأكيد؛ إذ مع أن جدرانها شيّدت من الطابوق غير أن سقوفها كانت مصنوعة من القش، وكانت تلك المدرسة الإبتدائية هي الوحيدة المشيدة في راميسوارام لذا لم يكن بدّ أن يدرس فيها جميع أبناء البلدة. كنّا في مجموعنا آنذاك أربعمائة تلميذ وتلميذة، ومع أن بناية المدرسة لم تكن جذابة لنا وتفتقد لوسائل الراحة المناسبة لكنها كانت برغم ذلك مكاناً مثيراً لنا لأن المعلّمين الذين كانوا يدرّسون موضوعات التأريخ والجغرافيا والعلوم كانوا محبوبين للغاية من قبل التلاميذ. لماذا؟ لأنهم كانوا يعشقون مهنة التدريس ويبذلون جلّ مابوسعهم حتى يتأكّدوا من أننا بلغنا مرحلة متفوقة وممتازة في دروسهم. إنّ منح الإهتمام المطلوب والمتكافئ بين تلاميذ الصف الواحد البالغ عددهم خمسة وخمسين تلميذاً ليس بالأمر اليسير حتماً، و لم يكن معلّمونا يطمحون أن يروا علاماتنا عالية في دروسهم وحسب بل كانوا يريدوننا أن نُبدي حبّاً حقيقياً للموضوعات التي كانوا يدرّسونها. كنّا نرى شعاع النقاوة والطهرانية يتلألأ في وجوه معلّمينا، ولو حصل أن غاب تلميذ عن المدرسة كان معلمونا يتجشمون مشقة الذهاب إلى منزله لرؤية والديه والسؤال منهم عمّا يكون قد ألمّ بطفلهم والسبب الذي منعه من حضور المدرسة، وإذا ماحصل أحدنا على علامات عالية في الإمتحان فإن معلّمينا هم أول من يذهبون مُسرعين لإخبار أهلنا بالأنباء المفرحة. كانت مدرستي تلك مكاناً يبعث

السعادة في روحي، وقد أكمل جميع تلاميذها تعليمهم حتى المرحلة الثامنة ولاأذكر أن أحدهم قد فشل في دراسته أو تسرّب منها، وعندما أزور المدارس الهندية اليوم في طول البلاد وعرضها وبصرف النظر إن كانت مدارس كبيرة أم صغيرةِ لاأفتأ أذكّر الناس فيها أن النوعية الجيدة لاتأتي من محض أبنية عظيمة أو مستلزمات فخمة أو إعلانات مبهرجة بل يُخلق التعليم الجيد خلقاً عندما يتشارك التلاميذ التعلّم بحبّ وشغف مع معلّمين يتّصفون بالنزاهة والعظمة.

وبالعودة إلى سياق حكايتي التي أبتغي روايتها فقد كانت المدارس حينذاك - وبخاصة المدارس الصغيرة مثل تلك التي إنتظمتُ فيها ببلدتنا - لاتفرض زياً موحّداً على تلاميذها الذين كانوا أحراراً في إرتداء مايشاؤون طبقاً لما يتناسب ومعتقداتهم الدينية: كان صديقي رامانادان يحضر المدرسة واضعاً العمامة الهندوسية الملفوفة بإحكام فوق رأسه مثل أبيه (وقد صار هو الآخر كاهناً للمعبد في بلدتنا بعد أبيه) فيما إعتدت أنا على الذهاب إلى المدرسة مرتدياً قلنسوة الرأس الصغيرة التقليدية الشائعة بين الأطفال المسلمين في بلدتنا ولم يلاحظ أيٌّ منّا مرة أن ملبسنا كان مثار تعليق سيئ أو إشارة تشي بقدح ما بين تلاميذ المدرسة.

عندما كنّا في المرحلة الثالثة من المدرسة حصل أمر بعث الدهشة في نفوسنا؛ إذ حلّ معلّم جديد في المدرسة، وربما يبدو الأمر بديهياً وعادياً غير أن هذا الأمر كان يبعث الدهشة ويغدو مدار تعليقات كثيرة بين سكّان جماعة محلية مغلقة مكتفية بذاتها، وكنّا نحن التلاميذ من جانبنا نذوب شوقاً وترقباً في إنتظار معرفة كيف سيبدو الضيف الجديد في المدرسة: هل سيكون شديداً أم متساهلاً؟ حاد المزاج مستثاراً أم هادئاً

لين العريكة؟ لم نكن نطيق الصبر حتى نرى المعلم الجديد وهو يعلّمنا في المدرسة، وعندما تحقق الأمر ودخل ذلك المعلم صفّنا لأول مرة إنزاح كل فضولنا جانباً وتلاشى في الهواء. كان المعلم الجديد هندوسياً من طائفة البراهميين، ومأأن دخل الصف حتى أجال بصره وتطلّع بنظرة خاطفة نحونا جميعاً وبدا عليه الإمتعاض لمرأى ذلك المشهد الواسع من الملابس المختلفة التي كنّا نرتديها، وأظنّه اليوم قد أخطأ خطأ مريعاً وفادحاً عندما لم يدقق في العيون الملتمعة وضحكات الأمل المرتسمة على وجوهنا نحن الأطفال الصغار، والحقّ أقول أن هذه هذه الإلتماعات في العيون وتلك الإبتسامات على الوجوه هي أول ماأطالعه على وجوه الأطفال متى مادلفت إلى أي مكان مكتظ بهم، ولكن بدا أن معلمنا الجديد كان يستعجل ممارسة مهامه لذا راح يتمشى بإتجاه مقدمة الصف وهناك وقعت أنظاره عليّ أنا وراماناداان. كنّا نحن الإثنان التلاميذ النجوم المبرزين في الصف وكنا حاضرين دوماً للمزيد من التعلّم والمشاركة لذا كنا نجلس دوماً في الصفوف الأمامية إلى الجانب اليمين من الصف، وهنا راحت عينا المعلّم تتفحّص بتؤدة معا لم قلنسوتي ثم راح يتطلّع في العمامة الملفوفة بإحكام والتي وضعها رامانادان فوق رأسه ولمحْنا في وجه المعلم نظرة إنزعاج وربما غير تصديق منه لما تراه عيناه!! وهنا، ومن غير أية أسباب تذكر، طُلب منّي أن أنطق بإسمي، وعندما فعلت طلب مني المعلّم أن أجمع متعلّقاتي وأنتقل للجلوس في مقعد خلفي لأسباب لايعلمها سواه. شعرت حينها بالحزن بل وحتى بالإهانة وتساءلت لم حصل هذا الأمر، وراح رامانادان يبكي حتى أن عينيه امتلأتا بالدموع ولم أزل أذكر عينيه الواسعتين تخضبهما الدموع عندما لملمت كتبي وتركت مقعدي المجاور له وغادرت للجلوس في مقعد بعيد عنه.

لم يعتزم أيّ منّا – أنا وراماناداد – أن يجعل الأمور تمضي من غير معرفة الأسباب؛ لذا أخبرت أبي بما حصل في ذات اليوم كما أخبر راماناداد أباه أيضاً، وقد فزع الرجلان وأصيبا بالصدمة جراء هذا الفعل لأنه كفيل بتحطيم كل ماسعيا إلى العمل من أجله. إن المعلم – أي معلّم – هو من يتشارك المعرفة مع تلامذته ويفتح عيون عقولهم في حين كان هذا المعلّم يفعل العكس تماماً؛ لذا رأينا هذين الرجلين – أبي وساستري – المهذبين ذوي الأمزجة الهادئة المسالمة في حالة من الغضب لم نألفهما فيهما سابقاً، وقد تحدّث الرجلان مع بعضهما وتأيدت لهما شواهد الحادثة، ومع حلول الغسق في الجمعة اللاحقة إلتقيا معاً وتمّ إحضار المعلم بحضور الأب بودال أيضاً، وفيما كان الظلام يسود مؤذناً بحلول الليل أفهم أبي وساستري المعلم وبكلمات قاطعة لاتقبل التأويل أن كارثة التمييز الديني التي كانت تمزّق النسيج الهندي في أماكن أخرى من الأمة لن يُسمح لها أن تنمو في هذه البلدة بالإضافة إلى أنهم لن يسمحوا بعزل التلاميذ على أسس دينية كما أنهم لن يقبلوا بأن يكون الدين عنصراً تقسيمياً للبلدة بدل أن يكون عنصر بناء وتكاتف، ولن يقبلوا بأن تصيب العدوى القاتلة أياً من العقول الأكثر يفاعة في المجتمع.

نقلت كل هذه الحقائق إلى معلّمنا بطريقة متخمة بالكرامة والكياسة، وسُئِل في الختام هل يرغب في رؤية ذاته رجل معرفة وضعت الأمة مستقبلها وديعة بين يديه؟ أطرق معلمنا ساكتاً ثم راح يفكّر وفي آخر الأمر عقّب قائلاً أنه قام فعلاً بفصل التلميذين عن بعضهما ولكنه لم يكلّف نفسه عناء التفكّر في تبعات هذا الفعل لأن هذه هي الكيفية التي لطالما رأى المجتمع حوله مُهيكلاً بها ووفقاً لها وأنه لم يفعل أكثر

من إتباعه الأعمى للقواعد المرعية السائدة، وأن لاأحد قد تكلّف عناء تعليمه شيئاً آخر يختلف عمّا بات محفوراً في عقله كما أن أحداً لم يبيّن له عبث وسخف تلك التقسيمات الدينية المهلهلة، ووعد المعلّم أن يصحّح الخطأ الذي إقترفه في اليوم التالي وقد أوفى الرجل بماوعد به حقاً.

كانت تلك تجربتي المباشرة الأولى وأوّل عهدي بالكيفية التي يمكن بها لثلاثة حكماء دينيين أن يعالجوا معضلة من ذلك النوع بطريقة حازمة ومنفتحة في الوقت ذاته؛ إذ عمل هؤلاء الحكماء الثلاثة على جعل تلك المعضلة تتلاشى بدل السماح لها بأن تصبح دُمّلاً ينزّ قيحاً – وهذا هو بالضبط جوهر الإدارة الجيدة كما أتيح لي أن أعلم لاحقاً. قدحت فيّ تلك الحادثة وميض فكرة أثّرت في تشكيل شخصيتي منذ ذلك الحين: ينبغي لقناعاتنا الذاتية وقوة مانؤمن به من أفكار أن تملي علينا أفعالنا دوماً وفي كل الأحوال. إن المؤثرات الخارجية والإغراءات والإستشارات ستنصبّ فوق رؤوسنا صباً ولكنْ وحدهم الذين يستشعرون في ضمائرهم ماهو خيّر وصائب هم الذين سينالون سلاماً داخلياً مع ذواتهم في آخر المطاف. إن بلدنا يحتاج مواطنين يثقون بفردانيتهم ولايمكن التلاعب بهم أو السيطرة على عقولهم بوساطة أجندات فاسدة لأناسٍ عديمي الضمائر.

بقدر مايتعلق الأمر بحقيقة ديني أقول أنني تبعت مصيري الذي قادني إبتداء من راميسوارام وأدخلني عالم العلم والتقنية، ولطالما آمنت بقوة العلم ولكنّ بيئتي الروحية التي أحاطتني وأنا يافعٌ في راميسوارام ظلت مؤثرة فيّ حتى اليوم. أفهم تماماً وجهات النظر المتباينة وبخاصة في موضوعة الله، وقد قرأت وتمثّلت المعرفة التي تحتويها نصوص دينية مختلفة – إبتداء من القرآن وحتى الغيتا والكتاب المقدّس، وقد جعلتني

هذه النصوص نتاجاً فريداً لأرضنا المميزة (**يقصد الهند، المترجمة**)، التي أعدّها تركيباً رائعاً يضم أفضل مافي خزانة تقاليدنا المتباينة، وإذا ماسئلتُ ماالذي يعنيه أن أكون مسلماً في هذه البلاد فيمكنني حينئذ وعلى الفور أن أشير إلى الناس الذين نشأت بينهم وصاروا أمثلة هادية لي: أبي وستراسي والأب بودال إلى جانب الكثيرين غيرهم من الذين إلتقيتهم في حياتي ومثلوا نماذج راقية للقيم الدينية والأخلاقية في أمتنا؛ فقد ساهم هؤلاء كلّ بوسيلته الخاصة في جعلنا قادرين على الإشارة إلى أمتنا بوصفها أمة متعددة الديانات والإثنيات حيث ثمة فسحة لكل فرد فيها ليتنفس هواء نقياً، ومن غير المشكوك فيه أننا نعاني معضلات خطيرة وإنقسامات مؤذية نكاد نشهدها كل يوم، ولكنْ لو تسنّى للأجيال القادمة أن تتذكر حكايات موغلة في القدم مثل حكاية جدّي السالف وحكايات إمام وكهنة راميسوارام فسأكون واثقاً تمام الثقة أن ديمقراطيتنا العلمانية ستبقى وتزدهر إلى الأبد.

my mother and my sister



أمّي وشقيقتي

قبل عدة سنوات خلت كتبت قصيدة وضعت لها عنوان (أمّي). تبدأ القصيدة بالعبارات التالية:

موجات البحر، الرمال الذهبية، إيمان الحجيج
زقاق المسجد في راميسوارام، كلها تندمج في واحد:
أمّي!

إن سنوات نشأتي - التي لازلت أتذكرها في حنين وشوق - مخضّبة وممهورة بذكرياتي في راميسوارام وبالشخصين اللذين كانا يمثلان مركز العالم بالنسبة لي آنذاك: أبي وأمي. كانت عائلتنا تنتمي لفئة العائلات ذات الدخل المتوسط حيث كان أبي يدير عملاً صغيراً بالإضافة لكونه إمام جامع، أما أمي، آشيامّا، فقد تحدّرت من عائلة سبق لأحد أفرادها أن خلع عليه البريطانيون لقب «بهادور» **(مفردة هندوستانية تعني المقاتل العنيد الشجاع، المترجمة).**

كانت أمي إمرأة متواضعة تقية ورِعة، وكانت - مثل أبي - مسلمة مؤمنة مكرّسة، وعندما أتذكرها تحضر صورتها على الفور في عقلي وهي تؤدّي صلواتها الخمس عندما تواظب على الإنحناء والركوع ثم النهوض ثانية وإماراتُ التكريس المطلق والسلام الكامل مرتسمة

على وجهها. كانت أمي مسؤولة عن النهوض بواجبات عائلة كبيرة؛ تلك المسؤولية التي إستنفدت كل طاقتها وقدراتها. كانت عائلتنا تضمّ أشقائي - بالإضافة لي بالطبع - وأجدادي وأقرباءنا من الأعمام وأطفالهم الذين كانوا يعيشون جميعهم في المنزل ذاته؛ لذا فإن الإيفاء بإحتياجات كل فرد في العائلة فرض على الدوام شحّاً في الموارد الضئيلة المتاحة وعليه لم يكن الوقت آنذاك وقت وفرة أو بحبوحة لأي واحد منا ولو أن الأمر كان أقلّ مشقة لعائلتنا نحن؛ فقد كان لدينا مورد ثابت من أعمال أبي في زراعة جوز الهند وإدارة عمل العبّارة، ولكن ذلك الدخل كان يفي بالكاد بإحتياجاتنا و لم يكن ثمة أية فرصة متاحة للإنغماس في أي شكل من الكماليات التي عُدّت آنذاك رفاهية غير متاحة.

وسط هذه الظروف ظلّت أمي هي الشريك المثالي المناسب لأبي؛ فقد خَبِرتْ ظروف الشحة وفهمت معنى الإقتصاد والتدبير في الموارد الشحيحة المتاحة و لم نرَ في وجهها يوماً أية علامة من علامات الإنزعاج أو الغضب من جراء حياة الشحّ التي كنا نحياها معها. كنا تلك الأيام وبعد أن ننال حصتنا من الطعام ويتم رعاية أمورنا بطريقة مرضية وعلى نحو يومي - كنّا نرى جموعاً من الناس تنتظم وراء من سيخبرهم (**يقصد أمه بالطبع، المترجمة**) أن يبقوا منتظرين ريثما يتناولون طعامهم معنا، وعندما أستعيد ذكريات تلك الأيام الآن أشعر أن أمي كانت تعدُّ طعاماً لأعداد من الضيوف اليوميين بقدر أعداد أفراد عائلتنا الكبيرة بل كان عدد الضيوف يتجاوز أعدادنا في غالب الأحوال، وقد إرتضى الجميع بهذا الأمر وعدّوه مسألة إعتيادية و لم يعلّق أو يُبد أحدٌ ما ملاحظة بشأنه - هكذا كان المفهوم الهندي لمعنى الضيافة الحقّة فيما مضى!

كانت طفولتي سعيدة، هانئة وآمنة. إن واحدة من أهم ذكرياتي المبكرة بشأن طفولتي هي الجلوس مع أمي وتناول الطعام على أرضية المطبخ، وكنا نأكل في العادة أوراق الموز كمقبّلات في حين كان الرزّ وطبق السامبر المعطّر والمخللات المصنوعة منزلياً هي الأطباق الرئيسية على مائدتنا (سامبر sambar: **الطبق الرئيسي السائد في الأجزاء الجنوبية من الهند ويحتوي تشكيلة واسعة من الخضار والبصل والطماطم، المترجمة)**. كانت أمي تطبخ بطريقة بسيطة للغاية ولكن لم أذُق لليوم طبقاً من السامبر يماثل في نكهته اللاذعة وروعة مطيّباته ذلك الذي كانت تعدّه أمّي. ثمة حكاية أخرى لها علاقة بالطعام لازالت مرتبطة بذكريات طفولتي حتى اليوم.

خلال سنوات الحرب العالمية الثانية باتت المواد الغذائية خاضعة لنظام تقنين صارم وطالت الشحة كل شيء تقريباً، وبذلت أمي وجدّتي أقصى مابوسعهما للتعامل مع تلك الأيام الشحيحة عن طريق ضغط الإستهلاك وتقليل المخلّفات والضائعات إلى أبعد الحدود المستطاعة، وذهب الأمر بالإمرأتين إلى التقتير في مايتناولانه من طعام بغية الإيفاء بمطالب الأطفال أولاً. حصل أحد الأيام أن صنعت أمي التشاباتيس بدلاً من الرز (تشاباتيس Chapattis: **فطيرة رقيقة تصنع من الحبوب الكاملة وتشوى على شواية حجرية، المترجمة)**، وجلست أنا في مكاني على أرضية المطبخ ومضيت أتناول قرص تشاباتي حارّاً واحداً بعد الآخر بتلذّذ ومتعة لاتضاهى، وقد داومت على الأكل فيما راحت أقراص الفطائر تأتيني واحداً بعد الآخر؛ فقد كنت طفلاً صغيراً أشعر بالجوع سريعاً وأحب الأكل في نهاية المطاف، وعندما أكلت بما يكفيني وشعرت بالشبع أخذت طبق أوراق الموز الخاص بي ومضيت لأغسل فمي.

في وقت متأخر تلك الليلة إنتحى بي أخي الأكبر جانباً ووبّخني للمرة الأولى في حياتي قائلاً: «كيف يمكنك أن تتغافل عّما يدور حولك إلى حدود غير معقولة؟» هكذا بدأ كلامه معي. في البدء لم تكن لديّ أية فكرة عمّا يحكي عنه أخي، ومضيت أحدّق فيه وأنا لاأفقه شيئاً، وهنا لانت لهجته بعض الشيء وبدأ يشرح لي الأمر: «ألم تلاحظ بأن الطعام المتوفر يكفي بالكاد لكي يتناول كل فرد قطعتين أو ثلاثاً من أقراص التشاباتيس؟ وقد ظلّت آمّا تخدمك على المائدة وتقدّم لك الأقراص لأنك بقيت تأكل وهي لاتستطيع - كما تعلم - أن تقول لك (كفى)، ولأجل هذا فقد بقيت من غير طعام بعد أن لم يبقَ لها ماتأكله».

أصابتني لحظة العار تلك بمقتل وطعنت فؤادي بقسوة بعد معرفتي أن أمي الحبيبة قد طالها الوهن وماعادت قادرة على الوقوف مع أنها الإمرأة الأكثر صلابة وجلداً التي عرفتها في حياتي، فمضيت أبكي بحرقة منفرداً محزوناً يملؤني الشعور بالخزي وأنا أتجنّب جاهداً أن يرى وجهي الآخرون، وقد إنقضت أيام عديدة قبل أن أستطيع النظر في وجه أمي ثانية. أي درس لايقدّر بثمن ذلك الذي تعلّمته حينذاك بشأن ضرورة ألّا أنسى إحتياجات هؤلاء الذين يعيشون معي! إن حب أمي هو مادفعها إلى التنازل عن طعامها لي بطيب خاطر، ومنذ أن أعلمني أخي بالحقيقة لم أعد أتناول طعامي إلا بعد أن أتأكد من وجود مايكفي من الطعام للجميع وبخاصة لأمي وجدّتي.

تركت منزلنا في وقت مبكر من حياتي سعياً وراء إكمال دراساتي في مدينة أوسع وأكبر من بلدتنا، وكنتيجة لهذا لم يعد بوسعي أن أظلّ طفل أمي الصغير المدلّل لوقت طويل مثلما فعل الكثير من أصدقائي، ولكن كرم أمي وروحها المحبّة لم تزل في أعماق قلبي دوماً.

نعود إلى سنوات الحرب العالمية الثانية مرة أخرى. عندما كنت في الثامنة من عمري عملت – وعلى النحو الذي سبق لي شرحه – صبياً عاملاً في توزيع الصحف. كان يومي يبدأ قبل الفجر حيث يتوجّب عليّ حضور الدروس الإضافية، ودروس القرآن، ثم إنجاز واجباتي اليومية في توزيع الصحف، ومن بعدها المضي إلى المدرسة والعودة منها حيث أمضي معظم المساءات في إنجاز واجباتي المدرسية، وفي كل أعبائي هذه وقفت أمي إلى جانبي مثل صخرة راسخة: كان عليها كل يوم أن تنهض قبلي لتعدّ لي ماء الإستحمام ثم توقظني من نومي، وبعدها كانت أمي هي من يودعني عند الباب وتنتظرني لساعة أو ساعتين ريثما أعود من الدروس الإضافية لكي أمضي بمعية أبي إلى المدرسة العربية لتعليم دروس القرآن المقدس، وعندما كنت أتنقّل خلال يومي من مكان لآخر لم يكن متاحاً لي من الوقت سوى تلك الفسحات الضئيلة التي أتناول فيها طعامي الذي كانت أمي تحضره لي على الفور بغية عدم خسارة أي وقت ثمين لي، وكثيرة هي الأوقات التي علمت فيها أن أمي تقتّر في طعامها لكي أتناول أنا المزيد منه، وعندما كنت أستفهم منها عن السبب وراء صنيعها ذاك كانت تكتفي برسم إبتسامة على وجهها وهي تبدي ملاحظة مقتضبة: «أنت طفل صغير ينمو ولديك الكثير من الأعباء التي تنوء بها في يومك، لذا لاتشغل بالك بي؛ فماأعمله هو عين ماتعمله جميع الأمهات تجاه أولادهن الصغار ويكون دوماً مجلبة لسعادتهن».
عندما كنت أعود كل مساء إلى المنزل جائعاً متعباً كانت أمي تعمل على راحتي وإعداد حمّامي وتهيئة أموري لليوم التالي.

كانت أمي تخصّني – بين جميع أشقائي – بحظوة مميزة: أذكر يوماً أن النوم غلبني وأنا بقربها واستقرّ راسي في حضنها، فظلت ماكثة

بهدوء في جلستها وهي لاتنفكّ تمسّد بأصابعها شعري ووجنتيّ؛ إذ كانت لمسة أمي هي البلسم الأغلى الذي يشفي كل أتعابي وأوجاعي، و لم أكن أعلم حينها أن دموعاً من أعماق قلبي راحت تنهمل من عيني المغمضتين وتنساب على وجهي ثمّ ركبتيّ المطويّتين ومن بعدها تقطر في ثوب الساري الذي كانت ترتديه أمي، ومع هذا لم تُمسك أمي عن تمسيد شعري ووجنتيّ و لم توقظني من غفوتي لأنها كانت تعلم علم اليقين ماالذي كان يُجري تلك الدموع من عينيّ: التعب المجهد العصيّ على الإحتمال والذي ينهض بأعبائه طفل يبتغي أن يستحيل رجلاً قبل أوانه، وفي كلّ ذلك الوقت لم تتوقف أصابع أمي عن تمسيد شعري برقة وهي تبعث الراحة والإسترخاء في روحي.

هذه السيدة البسيطة التي نشأت في قرية هندية جنوبية صغيرة ربما تكون واحدة من كثيرات أمثالها من الأمهات الهنديات في بلادنا وأبعد من بلادنا كذلك. لم تكن أمي لتغادر خطوة واحدة خارج منزلها وتشارك في شؤون بلدتنا كما لم تكن تمتهن مهنة على نحو ماتفعل النساء في أيامنا هذه؛ فقد كان عملها لايتجاوز حدود مملكتها العتيدة وينحصر في منزلها وعائلتها، وبرغم ذلك فقد خدمت كل واحد – إلى جانب الله – بأقصى ماتستطيعه من التكريس وإيثار الغير والتقوى، وهذا هو الدرس الثمين الذي تعلّمته من حياتها – لايهمّ كثيراً إن كان محيط تأثيرك صغيراً أو كبيراً، بل أن المهمّ في نهاية الأمر هو التكريس وحسّ الإلتزام اللذان يُبديهما المرء أزاء عمله الذي يؤديه في حياته.

عاش أبي مائة وإثنتين من السنوات، وعندما غادر الحياة ترك وراءه عائلة تضمّ خمسة عشر حفيداً، وتركت وفاته أثراً عميقاً في روحي: عدت من عملي إلى المنزل في ثومبا وجلست بجانب أمي لوقت

طويل، وعندما توجّب عليّ المغادرة ودّعتني أمي وباركتني بصوت مختنق. كنت آنذاك وسط معمعة بناء صاروخ SLV–3 وتنتظرني أعباء جسام كثيرة ولكن أمي لم تسألني مرة أن أبقى معها لأكثر ممّا متاح لي. هل كان ينبغي أن أفعل؟ هل كان ينبغي عليّ أن لا أنشغل على ذلك النحو المهووس بالعمل وأترك فسحة من الوقت أقضيه مع تلك السيدة العجوز التي إعتزم القدر أن لايجعلني أراها ثانية؟ لطالما سألت نفسي هذا السؤال و لم أجد جواباً مناسباً له. غادرت أمي الحياة سريعاً بعد وفاة أبي، وربما كان أمراً مناسباً لها أن لاتعيش طويلاً بمفردها وهي بعيدة عن الرجل الذي أحبته ووقفت بكل جهدها مساندة له على مدى يزيد على ثمانين عاماً.

بعد أن علمت بخبر وفاة أمي، وعندما كنت في طريقي إلى راميسوارام راحت الذكريات تقصف عقلي، ومضيت أفكر: الشخصان اللذان كانا السبب في تشكيلي لالمحض كوني طفلهما فحسب بل ساهما في صياغة أفكاري وشخصيتي، هذان الشخص لم يعُد لهما وجود بعد اليوم وبات مقدّراً لي الآن أن أمضي في حياتي من غير توجيههما، ولكني كنت أعلم في الوقت ذاته أن ليس بمقدور أحدّ والديّ أن يعيش بعيداً عن الآخر؛ لذا ملأتني الراحة لهذه الفكرة وأنا أشق طريقي إلى المسجد في البلدة حيث تعلّمت أن أؤدي صلواتي مع أبي بعد أن يُؤذن للصلاة في المسجد حيث كان الآباء يصطحبون أولادهم للصلاة معهم. كانت تلك الفاصلة الزمنية مناسبة لتذكيري بطفولتي الجميلة، وبأبويّ اللذين غابا عن الحياة، وبأمي التي عرفت أدق تفاصيل مايجول في أعماق روح إبنها حتى لو لم يبُح بأيٍّ منها وبقيت مدفونة في قلبه.

شقيقتي زوهرا

كنت واحداً بين عشرة أشقاء ضمن عائلتنا الكبيرة، وبالإضافة إلينا نحن الأطفال العشرة كان ثمة الكثير من أطفال أعمامي وأقرباءنا الأبعدين يملأون دوماً منزلنا الكبير؛ لذا نشأنا جميعاً ونحن لانعرف للضجر أي معنى! كان ثمة دوماً شجرة لنتسلقها، أو لعبة لنلعبها أو نزهة لنخطّط لها. كنا مجموعة رائعة سعيدة من الأطفال، وقد يحصل أن نتخاصم أحياناً لكن سرعان ماكان الصفاء يغمرنا، وربما كنا أشقياء أحياناً مع بعضنا لكننا كنا حاضرين على الدوام لتقديم يد العون لبعضنا خارج المنزل.

كانت شقيقتي زوهرا واحدة من بين الأطفال الكبار في منزلنا وقد نشأت على نحو شبيه بما كانت تنشأ به الصغيرات الأخريات في بلدتنا؛ إذ رغم ذهابها إلى المدرسة وانتظامها في الدراسة لكن كان متوقعاً منها أن تساعد بقدر ماتستطيع في أداء الأعمال المنزلية، وفي حقيقة الأمر كانت زوهرا هي الساعد الأيمن لأمي ورفيقتها المقرّبة بحيث صارت الرابطة التقليدية بين الأم وإبنتها أقرب إلى صداقة صقلتها ظروف الكدح لأجل العائلة: الطبخ والتنظيف ورعاية الأشقاء الأصغر والإضطرار للركوع على الرُكب حتى ينكشط الجلد عليهما فيما الأنوف تنزّ بفعل الحرارة، ومثل أمي فقد ألقت زوهرا بوهجها الساطع

على حياتي وربما حصل هذا الأمر لأنني كنت صبياً حالماً بعض الشيء؛ إذ لم أشارك معظم الأحيان رفقائي في نوبات هيجانهم أو تخطيطهم للمقالب فيما بينهم بل كنت دوماً أفضل القراءة ولطالما رآني الجميع منكباً على ورقة أو كتاب بين يديّ، وكانت زوهرا ترى هذا وتسعى لرعايتي بقدر إستطاعتها وبطريقة ترمي من ورائها إلى الحفاظ على براءة أخيها الصغير الحالم ودفعه لتحقيق طموحاته.

عندما كنت لاأزال صبياً بَعدُ دلف إبن عمّي أحمد جلال الدين عالمنا وإقتحم حيواتنا، وحصل الأمر كما لو أن نسمة من هواء عليل هبّت على مجتمعنا الصغير. كان أحمد جلال الدين قد درس حتى مرحلة متوسطة في حياته بحيث صار بمستطاعه القراءة والكتابة بالإنكليزية، ولكن قبل كل ذلك فإن رؤيته للحياة كانت منفتحة وواسعة تمتدّ لأبعد من سواحل راميسوارام، وقد ظلّ قريباً من عائلتنا وسرعان ماصار جزء من الحياة اليومية للعائلة.

إختزن إبن عمي جلال الدين حباً كبيراً لي وعرف بأمر فضولي الذي لايعرف حدوداً لذا سعى بأقصى مايستطيع لإيجاد أجوبة لتساؤلاتي التي لم تكن لتنتهي أبداً؛ فقد كان ثمة الكثير من التساؤلات داخلي بشأن كل ماأراه حولي من أشياء: لماذا تطير الطيور؟ كيف ينشأ المطر؟ كيف تعمل محركات القاطرات؟ وأسئلة أخرى مثل هذه، وهكذا أدرك جلال الدين حقيقة كون قدراتي أكبر من أن تحتويها مدرستنا المحلية في راميسوارام لذا ناقش أبي بشأن الحاجة الملحة لنقلي إلى مدرسة أكبر وأفضل في راماناثابورام.

راحت حياتي تمضي في طريقها المرسوم بسلاسة؛ فبعد إكمالي

لدراستي في مدرسة راماناثابورام عزمت على الإنتقال إلى مدراس (تدعى اليوم تشيناي) لدراسة الهندسة في معهد مدراس التقني MIT **(يتفق المختصر الإنكليزي هذا مع المختصر الذي يشير إلى معهد ماساتشوستس للتقنية الواقع في مدينة بوستن الأمريكية، المترجمة)**. حصل لاحقاً أن تزوّج جلال الدين من شقيقتي زوهرا وظلّ الإثنان الداعمين الأساسيين لي في تحقيق أحلامي وطموحاتي، وقد أصرّت زوهرا أن أثبّت أجنحة لأحلامي وطموحاتي بحيث يمكنها التحليق أنى أشاء فيما ظلّ زوجها جلال الدين معلّمي الناصح. بقيت أحوالنا المالية على حالها؛ إذ كنا نعتمد على الدخل الذي يدرّه عمل أبي، إذن من أين سنأتي بالستمائة روبية المطلوبة كرسوم تسجيل في المعهد؟ قد يبدو المبلغ المطلوب ضئيلاً بمقاييس هذه الأيام، ولكن كان المبلغ في تلك الأيام يعادل مائة ألف من روبيات اليوم بالنسبة لعائلتي.

كان ذلك هو الوقت الذي إختبرت فيه عزيمة شقيقتي؛ فقد أخبرَتْ زوجها أن لاشيء يمكنه أن يقف بوجه أخيها الأصغر للمضي قدماً في إكمال دراسته العليا. كان والديّ قد إحتفظا ببعض القطع الذهبية المصنوعة لأجل أمي، وكانت التقاليد السائدة في العوائل الهندية أن تلبس النساء القطع الذهبية في بعض الإحتفاليات، ولكن الكثير من العوائل أحتفظت بتلك القطع أيضاً لأيام العوز والحاجة **(أي جرياً على مأثوراتنا التي تقول أن الذهب زينة وخزينة، المترجمة)**. مضت شقيقتي زوهرا ومن غير كثير تفكير أو تردّد فأعلنت أنها ستستخدم قطعها الذهبية كرهن عند مُقرِضٍ للمال وستحصل على المال اللازم لتسديد أجور تسجيلي في المعهد، و لم تأبه لكونها صارت إمرأة متزوجة وأنها قد تحتاج المال يوماً للنهوض بأمر طارئ يخص عائلتها.

لمَسَتْ زوهرا قلبي بعملها ذاك الذي لازلت أراه واحداً من أكثر الأعمال كرماً وإيثاراً التي قدّمها لي شخصٌ ما في حياتي؛ ففي وقت الشدة وجدت زوهرا حلاً لمعضلتي المالية وقدّمت كل ماتستطيع فعله بقلب مبتهج وروح ممتلئة، ولطالما كانت قانعة منذ البدء أن أخاها سيجتهد بأقصى مايستطيع ويبذل كل جهده في دراساته، كما أن شقيقتي كانت مقتنعة كل القناعة أنني أمتلك كل المؤهلات لأكون مهندساً يوماً ما. رُهِنت أساور شقيقتي وسلسلتها الذهبية بالفعل وحصلت على المبلغ المطلوب لتسديد رسوم التسجيل في معهد مدراس التقني، وقد قطعتُ منذ بدء دراستي عهداً على نفسي أن أفكّ الرهن عن مجوهرات شقيقتي في أول فرصة أحصل فيها على مال وتحقق هذا الأمر بالفعل بعد أن بذلت أقصى طاقتي في الدراسة وحصلت على منحة دراسية.

لم تغادر زوهرا حدود بلدة راميسوارام طوال حياتها مثل أمي، وكانت إمـرأة مبتهجة مدبّرة ومستقيمة مثل أمـي تماماً، وتمثل لي الإمرأتان نموذجاً حياً مجسداً للجّلد وكرم الـروح والعطاء - تلك الصفات العظيمة التي تميّز المرأة الهندية العادية. إن أختي - كما المرأة الهندية - مثال لشخص لايمكن أن تدجّنه الظروف المحيطة به مهما بلغ بها السوء مبلغاً قاسياً، وغالباً ما تمضي في حياتها من غير أن تدرك أو تحقق طموحاتها أو أحلامها الشخصية وتستعيض عنها بالتفكير في طموحات زوجها أو حسن تدبير معيشة عائلتها وأطفالها، وستفكر هذه المرأة - وأمثالها - أول الأمـر بأبيها أو أشقائها أو شقيقاتها وستخبّئ تطلعاتها خلف أحدهم وتضع نفسها في المرتبة الثانية بعده. أتساءل دوماً: أين الطموحات والأحلام الشخصية لهذه المرأة؟ لن يترك

القدر والتقاليد والظروف هذه المرأة وشأنها وستُمتحنُ مراراً وسيكون عليها أن تقلق كثيراً وتدّخر بعض المال وتبتكر الحلول، وستكون قادرة دوماً على إيجاد مخارج لعائلتها والأشخاص الأعزاء القريبين من قلبها بعيداً عن أي مأزق، وستفعل كل هذا بطريقة يملأها الحبّ الذي سيغمر قلبك على الدوام.



معلّمي الناصح الأول: أحمد جلال الدين

ثمة العديد من الأشخاص المميزين الذين ظهروا في أوقات حرجة من حياتي وكانت لهم أدوار فعالة في تشكيل أو إعادة توجيه طرقي في التفكير، بل وساهم بعضهم في تغيير مسار حياتي بأكملها، ولازلت أحمل كل آيات الإمتنان والعرفان لجميل الصنيع الذي أبدوه بكرم تجاهي وبالكاد يمرّ يومٌ دون أن أتذكرهم جميعاً، ولو قيّض لي السبيلَ لإمتلاك كلِ الوقت المتاح في العالم فأعرف تماماً ماالذي سأفعله: سأقضي كلّ ذلك الوقت في الإستذكار الجميل لصنيع هؤلاء الذين شكّلوا حياتي؛ فهم بالنسبة لي مثل الشمس التي تدفئ الوجه والريح التي تعانق الجسد!! أحد هؤلاء المعلمين الأوائل المميزين في بواكير حياتي كان أحمد جلال الدين.

عندما كنت صبياً بعدُ إعتزم أبي بناء قارب والشروع في عمل نقل الناس بواسطة ذلك القارب – العبّارة (وعلى النحو الذي حكيت عنه في فصل سابق)، وقد غمرتني الدهشة خلال كل أطوار بناء ذلك القارب بعد أن كنت أشاهد أكوام الخشب وهي توضع في أماكنها المضبوطة وعلى النحو الذي يجعل شكل القارب شيئاً فشيئاً يبدو أكثر وضوحاً للناظرين، وذهبت بي الدهشة حدّ أنني بالكاد كنت أجرّ نفسي جراً عائداً إلى المنزل من ساحل البحر حيث كان القارب يُبنى هناك. كان

أحمد جلال الدين - الذي يسكن في راميسوارام وساعد أبي في بناء القارب - هو أوّل من لمح دهشتي وإعجابي بالقارب، وعلى خلاف البالغين الآخرين الذين كانوا منهمكين في أعمالهم طول الوقت فإنه لم يعدم إستقطاع بعض الوقت لتبادل الأحاديث معي كل يوم حول شتى الموضوعات، وقد تناولنا من ضمن ماتناولنا في أحاديثنا ذلك القارب: كيف ينبغي أن يكون بناؤه وطلاؤه بالأصباغ وماالذي يتوجّب إنجازه من أعمال أخرى لغرض إتمام عملية بنائه؟ ومنذ تلك الأوقات توثقت عرى الصداقة الحميمة بيني أنا الطفل اليافع الصغير وبين أحمد جلال الدين الشاب القوي الممتلئ حكمة والذي يكبرني بنحو خمس عشرة سنة.

تشعبت أحاديثنا - أنا وجلال الدين - بعد ذلك وتناولت موضوعات جانبية مختلفة وعلى نحو تدريجي، وبعد توالي الأيام واستحالتها سنيناً كبر كلانا وصار جلال الدين صهراً للعائلة بعد أن تزوّج أختي زوهرا، وهنا توثقت علاقتي به واتخذت بعداً أكثر عمقاً من ذي قبل، وماأتذكره بكل وضوح أكثر من الأمور الأخرى هو جولاتنا البعيدة على الأقدام حول بلدة راميسوارام: كنا ننطلق في جولاتنا المسائية تلك كل يوم تقريباً مبتدئين من شارع المسجد - حيث يقع منزلنا - عازمين على بلوغ شاطئ البحر، وكانت البلدة في العادة مكتظة بالحجيج الذين يتزاحمون طوابير تغذّ السير نحو معبد البلدة أو تعود منه. كانت أولى وقفاتنا في تلك الجولة عندما نبلغ معبد الشيفا في البلدة حيث تمضي خطواتنا في وقع متزامن مع وقع أقدام الحجيج الذين يطوفون بالمعبد، وفي الوقت الذي كان هؤلاء الحجيج يتلون صلواتهم خلال الطواف كنّا نرى كل بضع خطوات أحد هؤلاء وهو

يجثو على ركبتيه وتكاد جبهته تلامس التراب، في حين كان الآخرون يمدّون يد العون لآبائهم أو أقربائهم العجزة كبار السن لإتمام الطقوس الشعائرية لمراسيم طواف الحج، وفي العادة كانت أفكارنا أنا وجلال الدين تنعطف لتناول موضوعات روحانية ونحن وسط جموع الحجيج وكانت أحاديثنا في الغالب آنذاك تتمحور حول الله.

كانت نظرة جلال الدين إلى الله تختلف قليلاً عن النظرة التي إعتدت رؤيتها لدى أبي: كان أبي رجلاً تقياً يتبع كل قاعدة من قواعد العبادة بكل دقة - لاكمحض فعل خارجي يشهده الآخرون بل كحاجة داخلية ينبئه شعوره العميق أنه في مسيس الحاجة إليها، وعلى سبيل المثال فإن أداء صلواته الخمس وكل أشكال الصلاة الأخرى كانت بالنسبة لأبي عملاً حيوياً ضرورياً لإدامة وجوده الطبيعي مثل التنفس أو الأكل. جلال الدين هو الآخر كان - مثل أبي - رجلاً تقياً مكرّساً لكن الله كان بالنسبة له أقرب إلى صديق يتحدّث إليه ويبسط أمامه كل مشاكله ومنغّصات حياته حتى لَكأن الله يبدو كينونة طبيعية تعيش بيننا، وبالنسبة لجلال الدين لم يكن أمراً مقبولاً أن الله لن يكون حاضراً دوماً ليقدّم الحلّ المناسب بشأن أية معضلة متى ماتحدّث جلال الدين إليه بشأنها، وبينما كنّا نمضي في طريقنا وسط جموع الحجيج وأنا أرقب انغمارهم الكلي في أداء شعائرهم وأستمع في الوقت ذاته لأحاديث جلال الدين فإن عقلي كان يرى أن جميع العقائد تنحلّ في عقيدة واحدة مشتركة. هل يمكن - وسط تلك الأجواء المشرقة المفعمة بالصفاء الروحي والسائدة في راميسوارام - القبول بفكرة أن الصلوات الكثيرة المنبعثة من أفواه أفواج من المؤمنين الخُلّص بلغات متباينة وبعقائد مختلفة كانت تتجه نحو غير الأله الجوهري ذاته؟ أمر لايصدّق قطعاً. كنت

مقتنعاً تمام الإقتناع آنذاك أنّ مَنْ يستمع إلى تلك الصلوات المنبعثة من روح كل فرد في الجموع الحاشدة لابدّ أن يكون كياناً مشاعياً يتشاركه الجميع، ولكني برغم ذلك كنت أتساءل في سرّي هل أن صديقي جلال الدين كانت تربطه علاقة خاصة من نوع ما بالله بحيث غدا معها قادراً على رؤيته في كل الأمكنة، وهل أن تلك الرابطة هي ماجعلته قادراً على التبسّط في الحديث مع الله بكل حرية وانطلاق في كل الأوقات.

لم يُصِب جلال الدين حظاً كبيراً من التعليم العالي بعد أن إكتفى من التعليم الرسمي بالدراسة المتوسطة حسبُ لإضطراره إلى العمل المبكر والمساهمة في إعالة أسرته، ولكنّ مايُحسب لجلال الدين أنه كان واحداً من بين قلائل في راميسوارام ممّن توفّرت لهم بعض المعرفة باللغة الإنكليزية وكان في قدرته القراءة والكتابة بتلك اللغة؛ الأمر الذي جعله موضع طلبٍ دائم من قبل المقيمين في راميسوارام لغرض تدبيج طلبات التوظيف لهم أو لتحرير أية وثائق رسمية أخرى، وبعد أن شهدت بعينيّ مدى الإحترام الذي يقابَلُ به جلال الدين من قبل سكان البلدة عزمت أنا الآخر على ان أحذو حذوه وأكون مثالاً له؛ لذا إنكببت على الدراسة بجدّ واجتهاد وبالقدر الذي أستطيع، ومن جانب جلال الدين وبسبب كونه أعلى تعليماً من الآخرين فقد كان من بين الأوائل الذين تحسّسوا شغفي العارم بالعلم وتعطشي اللانهائي إلى المعرفة – ذلك الشغف والتعطش اللذان إمتلكا روحي وعقلي. كان لديّ منذ أيام طفولتي المبكرة نهم لايشبع لمعرفة كل شيء في الحياة وشاء القدر أن يضع جلال الدين في طريقي لكي يوفر لي إجابات معقولة عن كل ماكنت دائم التساؤل بشأنه: كنت أمطِرُ جلال الدين على الدوام بفيض لاينقطع من الأسئلة وكان من جانبه يُجيبني على أسئلتي تلك بصبر

وتأنّ بقدر مايستطيع وبقدرٍ من المعرفة يتناسب مع ما أتيح له هو ذاته و لم يكن يبخل عليّ بأي قدر من معارفه، وقد عمل الرجل بحقّ على فتح مغاليق عقلي والنظر في الكثير من الأشياء التي تكمن وراء مشاهد حياتنا اليومية المعتادة: الطبيعة، الفضاء، المكتشفات العلمية، الكتب، الأشخاص المميزون ذوو الشهرة المرموقة، الخ.

لطالما تأملتُ في السؤال التالي: ماالذي يخلق شخصياتنا؟ ماالقدْرُ الذي تساهم فيه البيئة في تشكيل تلك الشخصيات وماالقدر الذي يُخلقُ طبيعياً معنا عند الولادة؟ عندما أنظر بعيداً إلى أيام طفولتي المبكرة أستطيع أن أضع إصبعي على تلك السمات المحددة التي إنتقلت لي من هؤلاء الأعزاء الأكثر قرباً وتأثيراً في حياتي: من والديّ تعلّمتُ النزاهة والإنضباط الذاتي والايمان ورقة القلب والتعاطف مع الآخرين، ومن أولاد عمّي شمس الدين وجلال الدين تعلّمت حقيقة أن كل كائن إنساني لابد أن يحمل في داخله شيئاً فريداً ومميزاً خاصاً به، وأولاد عمي كلاهما هما أول من لمح فيّ وهج الموهبة والرغبة في التعلّم والمعرفة وأخذا بيدي وتعهّدا تلك الموهبة بالرعاية اللازمة والتشجيع المطلوب، ومع أن أولاد عمّي لم يحوزا تعليماً عالياً أو معرفة تقنية معقدة لكن كانت لهما في المقابل مقاربة حدسية مباشرة في الحياة؛ إذ لطالما علما بأمر الأسئلة التي تجول بخاطري والطموحات التي أبتغي تحقيقها في الحياة حتى قبل أن تكون تلك الأمور واضحة لي أنا!! وهكذا كانا يستطيعان إستخلاص تلك الأسئلة والطموحات من داخلي وجعلها واضحة أمامي كأهداف مشخّصة في حياتي تستحق أن أبذل كل جهودي في سبيل تحقيقها.

بعد أن كبرت قليلاً وغادرتُ طفولتي كان جلال الدين أول الأشخاص الذين شجّعوني على كسر الأغلال التي تقيّدني ومغادرة

العوالم الضيقة التي تحيط بي في راميسوارام: عندما رغبت مثلاً في إكمال دراستي الثانوية في مدرسة أكبر وأحسن تجهيزاً تقع في مدينة بعيدة عن راميسوارام فإن جلال الدين هو من أنجز كل الترتيبات لي وسافر معي إلى مدينة راماناثابورام التي تقع فيها تلك المدرسة و لم يغادر إلّا بعد أن رآني وقد إنتظمت في الدوام بمدرسة شوارتز الثانوية العليا لأنه كان يدرك أن الحياة في مدينة تختلف عن بلدة راميسوارام تُعدُّ إنعطافة عظيمة بالنسبة ليافع مثلي لم يغادر بلدته منذ أن كان صبياً؛ فقد إفتقدت وللمرة الأولى في حياتي الأجواء الحميمة في عائلتي والمشاهد المألوفة لي في راميسوارام وكذلك أمي وطبخها اللذيذ، ولكن جلال الدين هو من زرع فيّ خصلة التفكير الإيجابي في تلك الأوقات الصعبة بعد أن أعلمني بضرورة التحكّم في تلك المشاعر بغية المضيّ قدماً وتحقيق رغبتي في الحصول على تعليم أفضل من حيث النوعية، وفي كلِّ مرة كنت أشعر فيها بالحزن والحنين الجارف لأسرتي وبلدتي كنت أفكر في جلال الدين وكلماته وهو ماكان يمنحني الشجاعة المطلوبة للمضيّ في حياتي غير المألوفة لي كطالب يعيش في مدرسة داخلية.

في كلّ طور من أطوار حياتي وحتى أصبحت رجلاً بالغاً بالمعنى الحقيقي للكلمة – رجلاً يمتلك القدرة على التحكّم بأفعاله الخاصة – كان جلال الدين سنداً لي وعوناً؛ فهو من ساندني عندما تعثّرت، وهو من شجّعني عندما شعرت بعجزي عن المواصلة، وهو من وقف إلى جانبي عندما خطوت أولى خطواتي المتعثرة في عالمي الجديد الذي كان غريباً عليّ. كيف يمكن لي أن أنسى ذلك اليوم الذي إصطحبني فيه جلال الدين وشمس الدين إلى بومباي (التي صارت اليوم تدعى مومباي) لمطار سانتا كروز حيث كنت على وشك الإتيان بفعل لم يكن لأحد

القدرة على محض تخيّله قبل عشرين سنة في راميسوارام - كنت في طريقي إلى الولايات المتحدة من أجل الإنضمام إلى برنامج تدريبي في وكالة ناسا الفضائية أمده ستة أشهر، وكنت حينها قد أصبحت مهندس صواريخ وقُبِلت للعمل في اللجنة الهندية الوطنية للبحث الفضائي INCOSPAR وهي اللجنة ذاتها التي قرّرت إرسالي في ذلك البرنامج التدريبي في الولايات المتحدة. ودّعني جلال الدين وشمس الدين في مطار سانتا كروز، وكان خوفي واضطراب روحي بشأن السفر إلى الخارج يجد انعكاسه في قلقهما للتواجد في مدينة كبيرة مثل بومباي لم يسبق لهما المكوث فيها من قبل ولكنهما إحتفظا بكرامتهما وجاهدا في حملها مثلما يحمل الشخص عباءته، ولازلت أذكرهما واقفين بجوار حاجز المسافرين وهما يبديان كل إمارات التفاؤل والإيجابية بي والتي كانت تصلني من خلال تلويحهما لي طول الوقت. كان الرجلان يريان الجانب الخيّر فيّ حسبُ وكان لديهما إيمان حاسم غير مصرّح به بأنني سأختار دوماً الدرب الصحيح في الحياة، وعندما رأيتهما في المطار وهما يلوّحان لي غلبتني عواطفي الجيّاشة ومشاعر الحب التي أكنّها لهما وراحت دموعي تملأ عينيّ، وفي غمرة الدموع التي انهمرت بسخاء على وجهي كنت أسمع صدى كلمات جلال الدين تتردّد في أذنيّ: «عبد الكلام، لطالما أحببناك وآمنّا بقدراتك. سنكون على الدوام فخورين بك». كيف لي يوماً أن أنسى كلمات التشجيع هذه؟

أعتقد اليوم أن جلال الدين لم يكتفِ بالأخذ بيديّ وتشجيعي على التعلم والمعرفة ونصحي بأن أشق طريقي في هذه الحياة وأظلّ مرفوع الهامة دوماً، بل علّمني كيف أعيش أيضاً، وقد صرت رجلاً بالغاً له أفكاره الخاصة وفعالياته الفكرية الإبداعية بدفعٍ من تأثيره - ذلك التأثير

الذي بقي حياً في روحي حتى بعد أن ابتعدت عنه وعن عائلتي لأجل شقّ مساري الخاص في هذا العالم، وإذا كان الرجل قد علّمني كلّ دروس الحياة فهل يُعقلُ أن يكون قد أغفل تعليمي درسها الأكثر قساوة رغم كونه حقيقة ثابتة في هذه الحياة – الموت؟!!

عندما كنتُ منهمكاً في العمل على مركبة الإطلاق الفضائية في منظمة البحث الفضائي الهندي جاءتني أخبارٌ أحد الأيام بأن إبن عمي: معلّمي الناصح وموجّهي وصديقي جلال الدين قد غاب عن الوجود إلى الأبد، وجاء الخبر ليكون صدمة قاسية لي لأن جلال الدين لم يكن قد بلغ من العمر مايموت فيه الناس عادة. عندما بلغني نبأ الوفاة كنت مذهولاً تماماً ورحت أتساءل: كيف يمكن أن يحدث هذا الأمر؟ كيف يمكن أن نكون جميعنا أحياء في حين غيّب الموت هذا الرجل إلى الأبد؟ وفي غمرة إنفعالي المتأزم أذكر أنني تفوّهت ببضع كلمات غير ذات معنى لأنني كنت حينها عاجزاً عن التفكير أو الشعور أو الحركة وظللتُ هكذا لبرهة من الوقت، وفور إستعادتي لزمام نفسي آخر الأمر تركت بعض التعليمات لزميلي في العمل وأعددتُ ترتيباتي للسفر فوراً إلى راميسوارام.

في طريق سفري إلى راميسوارام مستقلاً حافلة قديمة ظلت تئن وتُحدِثُ عجلاتها أزيزاً لاينقطع وهي تجوب الشوارع الداخلية الضيقة، أحسست بنفسي وحيداً تماماً وأنا أستمع إلى صخب رفقائي المسافرين وثرثرتهم طول الوقت في حين راحت الرياح تصطفق بوجوهنا عبر النوافذ المشرعة عن آخرها. مع وفاة جلال الدين فإن شيئاً أثيراً لديّ قد غاب هو الآخر عن الحياة ودُفن مع إبن عمي: غاب إلى الأبد ذلك الصبي الذي إحتاج دوماً للتوجيه والنصح، والذي إعتاد توجيه عشرات

الأسئلة، والذي كان يعلم أنه مهما عمل أو أتى بشيء ما فثمة على الدوام يدان مُحبّتان حاضرتان للأخذ بيديه وتوجيهه الوجهة المطلوبة، وعندما أغلقت عينيّ ومضت في رأسي تلك المشاهد الحميمة: المغادرة إلى راماناثابورام، توفير جلال الدين للنقود الكافية لشراء الكتب لي، وقوفه لتوديعي في مطار سانتا كروز والدموع تنهمر متلألئة من مآقيه – تلك الدموع التي تشي بفخر لايمكن كبحه أو جعله حبيساً في الصدور والذي يجول بداخل كلّ من جاهد في محبة طفلٍ له وتنشئته التنشئة الصحيحة بحقّ. رأيت جلال الدين يمشي معي على رمال سواحل بلدتنا الصغيرة في راميسوارام وهو يشير بأصبعه نحو النجوم والقمر وموضحاً لي في الوقت ذاته أين تمضي الشمس بعد أن يتلاشى قرصها في البحر آخر المطاف.

وصلت منزلنا فوجدت أختي تنتحب بصورة تبعث على الشفقة وتقطع نياط القلب، وإلى جانبها جلست إبنة أختي الصغيرة التي غادر أبوها الحياة عَجِلاً قبل ميعاده المرسوم، ثم قابلت أبي الذي كان بلغ آنذاك المائة من السنوات ولكني للمرة الأولى شعرت حينذاك أنه قد شاخ كثيراً وبدا مُتعباً على غير عادته وبدا أنّ حزنه على وفاة صهره قد أزاح شيئاً في داخله. أكملنا دفن صديقي العزيز ومعلمي المحبّ الذي رقد رقدته الأخيرة في سلام، و لم أجد طوال الوقت الدموع التي يستحق أن أذرفها بسخاء على رحيله المفاجئ وبدوت كمن يمشي في جنازته وأنا مصاب بدوار كامل وسط ضباب الذكريات التي راحت تزدحم في عقلي.

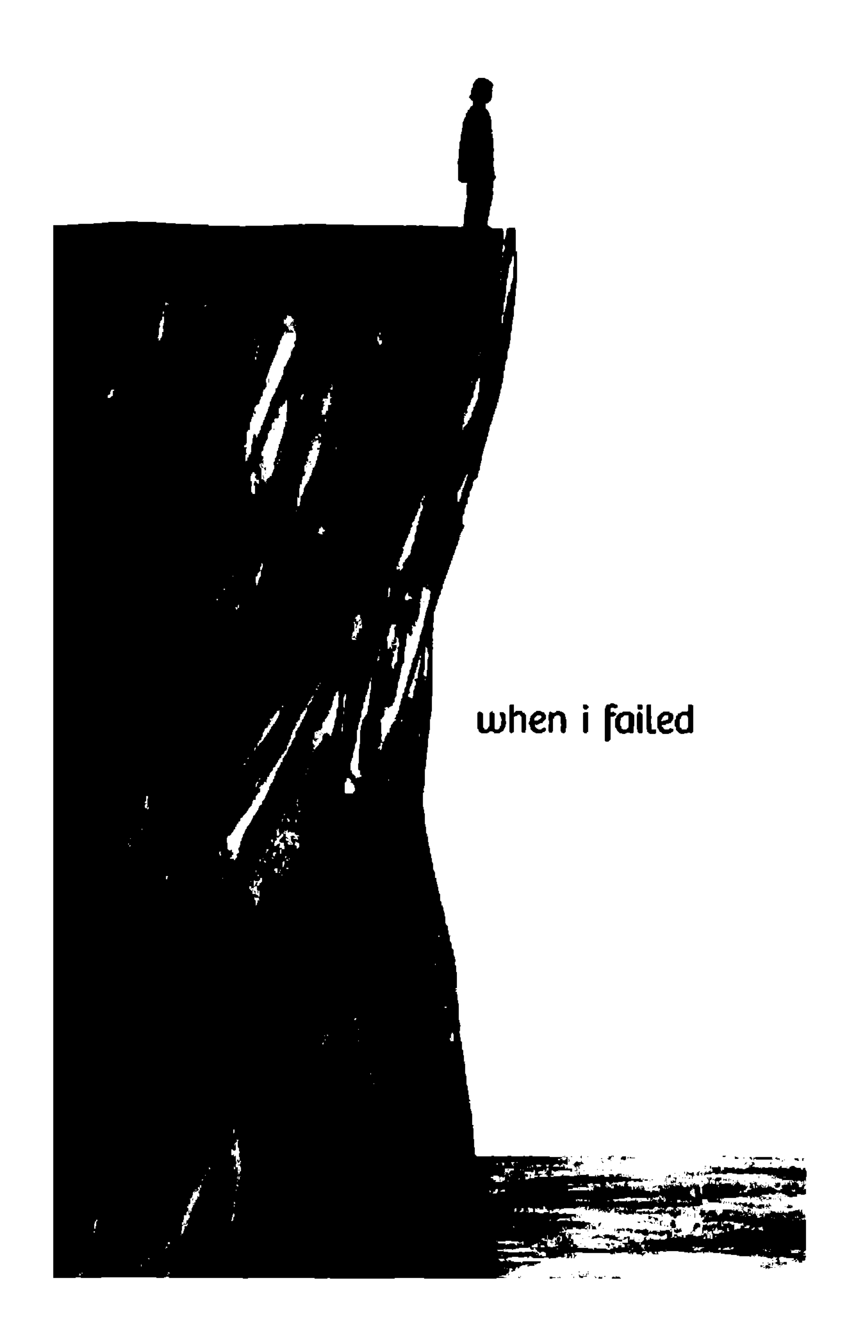
بعد إتمام مراسيم الدفن أمسك أبي – الذي كان الأكثر إدراكاً وبصيرة بين الرجال رغم شيخوخته – بيديّ وأجلسني بجانبه، وهنا

كان بمقدوري معرفة أنه هو الآخر لم يذرف دموعاً، ثم قال لي: «عبد الكلام، ألم ترَ من قبلُ كيف أن الربّ يُغيّر ظلالنا على الأرض، ولو كان الأمر منوطاً بإرادته وحدها وحسب لجعل تلك الظلال ثابتة لاتحيد، ولكنه قصد أن يجعل الشمس هي من يوجّه تلك الظلال التي سرعان ماتصغر شيئاً فشيئاً. الله هو من جعل لنا الليل لنسكن فيه (**أي نرتاح فيه، وقد تعمّدت إستخدام المفردة القرآنية لمناسبتها السياق الذي يرد فيه النص، المترجمة**)، وهو من أرسل جلال الدين في غفوة طويلة – غفوة تخلو من الأحلام تنال فيها مخلوقاته راحة كاملة بعد أن تغيب عن الوعي. لاشيء يحصل من غير إرادة الله وفيه وحده ينبغي أن نضع كل ثقتنا وإيماننا».

تنحّيتُ جانباً وأنا أتأمّل الكلمات الحكيمة التي تفوّه بها أبي: ليس الموت بالأمر الذي نخافه و لم أره يوماً أمراً مخيفاً لي، ومع ذلك فإن الحزن الذي يتسبّب به الموت ليس بالأمر الهيّن أو الذي يمكن غضّ الطرف عنه. كلّنا سنغادر هذه الحياة عندما يحين وقتنا، ولكن عندما يغادر بعضنا بوقت أبكر بكثير من الآخرين، مثل جلال الدين الذي لم يمهله القدر الفرصة لرؤية أولاده يغدون شباباً بالغين ومن ثم رؤيتهم متزوّجين، ثمّ ملاعبة أحفاده، حينذاك يكون الحزن المتدفق كبئرٍ من القلب حقيقة واضحة سيعيش المرء بقية حياته معها ولن يستطيع لها دفعاً أو تبديلاً.

كان صديقي أحمد جلال الدين شخصاً عادياً بالنسبة لكثيرين، ولكنه بالنسبة لي كان شخصاً مميزاً إلى أبعد الحدود؛ فقد جلب التغيير إلى حيوات الكثيرين وأعاد تشكيل عقول الكثيرين حوله من خلال القوة الخالصة للحب والبساطة والتفهّم العميق، وثمة العديد من أمثال

الشخصية المميزة لأحمد جلال الدين في كل قرية أو بلدة في هذه البلاد، وقد كنت بالفعل محظوظاً للغاية إذ كان شخص مثله قريباً مني في كلّ الأوقات ولأنه شدّ على يديّ بكل ثقة بغية جعلي الشخص الذي كان يأمل أن أكونه في يوم ما من قادمات الأيام.



when i failed

عندما فشلت!!

شهدتُ الكثير من النجاحات العظيمة وبلغت أعـالي مرتقيات الإنجاز في حياتي الطويلة المكتظة بالحوادث الجّسام؛ إذ حصل أن كنت جزءً فاعلاً في الكثير من المشروعات التي ساهمت مساهمة فعالة في الإرتقاء ببلدنا في الحقليْن العلمي والتقني كما أتيح لي شرف بلوغ المنصب الأعلى في البلاد (**يقصد الرئاسة، المترجمة**)، وثمة الكثير بالتأكيد من الإنجـازات التي يمكن أن أستذكرها متى ماتطلّعت في السنوات الماضيات: بعضها كان نتاجاً خالصاً لي وبعضها الآخر كان نتاجاً لمشاركتي مع فرق عمل أخرى؛ الأمر الذي أعدّه دوماً مبعث فخر لي، ومايميّز تلك الإنجازات جميعاً أنها كانت نتاج عقول متفوقة وعلى أعلى درجات الموهبة والإتقان في العمل، ومع ذلك فأنا أؤمن إيماناً حاسماً أن المرء ما لم يتذوّق طعم الفشل المرّ فلن يتطلّع بما يكفي من الطموح لتحقيق أهدافه المتوخاة، ومن جانبي فقد خبرتُ وجهي العملة معاً – الفشل والنجاح، وتعلّمت أكثر الدروس قساوة في الحياة عندما إنزلقت يوماً في وهدة الخذلان الذي يتسبّب به الفشل ويأتي متلازماً معه، وأرى أن هذه الدروس القاسية تستوجب إعادة تعدادها والتذكير بها لأنها هي التي ساعدتني على بذل الجهد المطلوب لمواصلة طريقي وسط الظروف الشاقة التي مررت بها في حياتي.

واحدة من حكايات الفشل المبكرة في حياتي حصلت معي وأنا طالب في قسم الهندسة الملاحية الجوية بمعهد مدراس التقني: كان بروفسور التصميم في قسمنا آنذاك هو الأستاذ سرينيفاسان الذي كان رئيس المعهد في الوقت ذاته، وقد طَلب إلينا مرّة أن نتوزّع في مجموعات تتكون من أربعة طلبة للمجموعة الواحدة، وكان واجب كلّ مجموعة أن تقدّم تصميماً لطائرة مقاتلة هجومية واطئة الإرتفاع، وكنت أنا في مجموعتي مسؤولاً عن إنجاز التصميم الإيروديناميكي للطائرة. عملت مجموعتي بجهد عظيم لأسابيع عدّة، وراح أعضاء مجموعتي يتسابقون في إنجاز التصاميم الخاصة بكل العناصر المكلّفين بها مثل الدفع والهيكل والسيطرة وضبط الأجهزة العاملة في الطائرة، وكان جدول عملنا مزدحماً بالفعل طول الوقت وأنفقنا الكثير من الساعات الطويلة ونحن نناقش كل الأفكار الممكنة في التصميم النهائي ونشبعها بحثاً ودراسة، واستطعنا في نهاية الأمر أن نحوز على إعجاب أساتذتنا الذين راحوا يتابعون كل صغيرة وكبيرة في المشروع، وحصل يوماً أن طلب البروفسور سرينيفاسان رؤية تصميمي الإيروديناميكي للطائرة، وعندما عرضته أمامه مضى على الفور في تفحّص التصميم بعينه المميزة الثاقبة البصيرة فيما وقفت أنا صامتاً بجانبه بأنفاس تكاد تتوقف في إنتظار حكمه النهائي بشأن تصميمي، ولاأزال أذكر تغضّن جبينه وانعكاف حاجبيه والتقطيبة غير السارة على وجهه وهو يتطلّع ملياً في لوحة التصميم المفروشة أمامه، ثم رفع رأسه وعدّل قامته وقال لي كلماته التي أصابتني بذهول كامل: «هذا ليس جيداً إلى حد كاف، عبد الكلام»، ثم أزاح عينيه عني وهو يكمل قائلاً: «توقعت منك عملاً أفضل بكثير عبد الكلام. أرى أن عملك هذا بائس يبعث على الإكتئاب، وأراني خائب الأمل إذ أجد طالباً بمستوى موهبتك وقدرتك يأتيني بعمل

تصميمي مثل هذا». تطلّعت في وجه أستاذي وأنا مصعوق ولاأدري ماأفعل؛ إذ لطالما كنت الطالب النجم في كل مراحل دراستي و لم يسبق أن وبّخني أستاذ ما بتلك القسوة التي أشعرتني بقدر من الإحراج والعار لم يسبق لي أن شعرت بمثيل له من قبل. هزّ البروفسور سرينيفاسان رأسه وطلب إليّ بكلام صارم أن أعيد عمل التصميم بكامله مبتدئاً من أبسط الأوليات ومعيداً النظر بكل إفتراضاتي السابقة، وبالطبع لم يكن أمامي سوى ان أوافق وإمارات الخجل المتسربلة بالعار تطفح على وجهي، ثم توالت عليّ الأخبار السيئة: لايُفتَرَض فيّ إعادة التصميم بأكمله وحسب، بل يجب إنجاز العمل في مدة ثلاثة أيام لاغيرها!! «الوقت الآن هو عصر الجمعة أيها الشاب. أريد أن أرى مساء الإثنين القادم وعلى طاولتي هذه تصميمك الكامل الجديد الخالي من العيوب، وإذا كنت غير قادر على إنجاز العمل فاعلمْ أن منحتك الدراسية سيتم إيقافها على الفور» هذا ماأضافه البروفسور سرينيفاسان لقوله السابق وهو مافاقم من إضطرابي وشعوري المخزي آنذاك؛ فقد كانت المنحة الدراسية هي وسيلتي الوحيدة للإيفاء بالمتطلبات المالية لدراستي في المعهد، ولو أوقفت فسيكون عليّ حينئذ الإنقطاع عن الدراسة، وهنا راحت طموحاتي وأحلام أمي وأبي وشقيقتي وجلال الدين تومض في عقلي حتى بدت كأنها تتراجع بعيداً إلى الوراء، وهنا أحسست أنّ من غير المعقول أن يستحيل المستقبل ظلاماً كالحاً بسبب بضع كلمات قالها لي أستاذي البروفسور.

مضيت إلى العمل على الفور وأنا عاقد جلّ عزمي على إثبات نفسي وكفاءتي، وأذكر أنني ألغيت وجبة عشائي تلك الليلة وبقيت منكبّاً على طاولة الرسم طوال الليل، وقد تجمّعت في عقلي عناصر تصميمي

الجديد بحيث بات في مقدوري أن أجعلها تتخذ الأشكال المطلوبة التي يمكن العمل معها في التصميم ذاته، وبدا لي حينذاك أن عملي المركّز الدقيق إستطاع أخيراً إزاحة خيوط العنكبوت التي عشعشت في عقلي بعد تلك التجربة الأليمة، ومع حلول صباح اليوم التالي كنت لاأزال أعمل على التصميم كمن غدا ممسوساً، ومنحت نفسي فرصة قصيرة للغاية لتناول بضع لقيمات صغيرة وتجديد طاقتي ثم مضيت في مواصلة العمل بكل عزيمة، وبحلول مساء الأحد كان تصميمي الجديد قد أنجز تقريباً - تصميم حاذق أنيق يشع جمالاً جعلني أشعر أزاءه بالفخر لكوني أنا من أنجزه، وبينما كنت أضع لمساتي النهائية على التصميم أحسست بجلبة في غرفتي، وعندما تطلعت في مصدر الجلبة رأيت البروفسور سرينيفاسان أمامي وهو مايزال مرتدياً ملابس التمرين الرياضية البيضاء الخاصة بلعبة التنس وقد عرّج عليّ في طريق عودته من النادي الرياضي، وفي الحقيقة لم أكن أعرف كم مضى عليه من الوقت وهو واقف بعيداً في زاوية الغرفة يراقبني وأنا منهمك بالعمل، وعندما تلاقت عيوننا تقدّم إليّ على مهل وبخطوات مستقيمة، وانحنى على الطاولة ليتطلّع في تصميمي الجديد لدقائق معدودات ثم رفع رأسه بعدها وعدّل قامته وارتسمت إبتسامة على وجهه، واحتضنني بحرارة وأنا مندهش لاأكاد أصدّق مايجري، وراح يربّت على أسفل كتفيّ قائلاً: «أعلمُ أنني وضعتك تحت عبء إجهاد عظيم عندما رفضت عملك قبل يومين، وقد قصدت عامداً أن أضع أمامك مهلة نهائية مستحيلة التحقيق لتسليم تصميمك الجديد، وها أنا أراك قد أوفيت بتلك المهلة وجئتَ بإنجاز لايمكن إلا أن أصفه بالإستثنائي. أنا من الواجب عليّ كمعلّم لك أن أدفعك لإخراج أعظم مافي قدراتك إلى حيز الوجود لتدرك كم هي ثمينة القدرات المخبوءة في دواخلك»،

وهكذا بعد يومين من الرفض والشعور المخزي وقعت كلمات أستاذي موقع الموسيقى العذبة على أذنيّ وجعلتني أستعيد ثقتي وإيماني بقدراتي الذاتية.

تعلّمت ذلك اليوم درسيْن ثمينيْن: الأول أن المعلّم الذي يضع تقدّم طالبه / طالبته نصب عينيه دائماً هو الصديق الأفضل الذي يمكن أن يظفر به المرء في حياته لأن المعلّم هو وحده من يعرف كيفية دفع طلبته قدماً في طريق التميّز والإنجاز الأفضل، أما الدرس الثاني فهو أن ليس ثمة مايمكن أن يوصف «موعد نهائي مستحيل التحقيق»؛ فقد سبق أن أنيطت بعهدتي واجبات مجهدة غاية في الصعوبة كنت أعمل في بعضها تحت إشراف مباشر من أعلى القادة في البلاد، ولكن ثقتي بإمكانياتي التي عزّزتها كلمات البروفسور سرينيفاسان في معهد مدراس التقني هي ماساعدني في إنجاز كل المهمات التي أنيطت بي وكذلك في حياتي كلها بعامة في الأوقات اللاحقة لتخرجي من المعهد.

بدأت حياتي العملية بالطبع بعد أن غادرت معهد مدراس التقني، وكنت أعلم القليل للغاية بشأن الدروس الأكثر صعوبة بكثير من دروس المعهد والتي سأختبرها في حياتي اللاحقة. عملت أول الأمر في شركة الملاحة الجوية الهندوستانية المحدودة HAL التي تعلمت فيها الكثير بشأن تصاميم الطائرات وتقنياتها الكثيرة وحينها علمت برغبتي المؤكدة في أن أمتهن الطيران، وبعد أن أكملت متطلبات عقد عملي في الشركة ومُنحتُ عنوان مهندس ملاحة جوية متقدّم كان أمامي فرصتا عمل: واحدة في القوة الجوية والأخرى في مديرية التطوير التقني والإنتاج التابعة لوزارة الدفاع (فرع القوة الجوية)، وقد تلقيت بالفعل دعوات لحضور مقابلة توظيف من الجهتين المذكورتين. كانت المقابلة

الأولى في دوهرا دون، أما الثانية فكانت في دلهي، ومضيت لحضور المقابلتين وقلبي عامر بطموح عظيم لاحدود لآفاقه.

كانت المرة الأولى التي تقع فيها عيناي على طائرة حقيقية عندما شاهدت عن قربٍ وأنا طالب في معهد مدراس التقني طائرتين خارجتين عن الخدمة تستخدمان لعرض الأجهزة الثانوية الضرورية الملحقة بكل طائرة أمام الطلبة، وقد مثّلت تلك الطائرتان دهشة متزايدة راحت تتعاظم في داخلي يوماً بعد الآخر حتى غدوت لاأطيق صبراً على الإبتعاد عن مرآهما؛ فقد مثّلتا لي القدرة المميزة للإنسان على التفكير الذي يتجاوز الحدود الطبيعية المفروضة إلى الحد الذي يمكن فيه منح الأحلام البشرية أجنحة تحلّق بها عالياً، وكنت قد إخترت الهندسة الملاحية الجوية كفرع دراسي أتخصص فيه بسبب إندهاشي العجيب فيه ورغبتي المتعاظمة في معرفة المزيد عن الطيران، ولطالما غذّيت أحلامي منذ طفولتي المبكرة بقدرتي على الطيران يوماً؛ بل وحتى صارت قدرتي على الإمساك بمقود آلة ترتفع قليلاً قليلاً في الهواء هي الحلم الأثير والأقرب إلى روحي.

عندما إنطلقت من مدراس إلى شمال الهند بغية إجراء مقابلات العمل كنت طول الطريق أقلّب أحـلام الطيران في عقلي مرّات ومرّات؛ فقد أصبحت في نهاية المطاف على عتبة أن أكون طيّاراً!!، وكانت رحلتي من منطقة التاميل إلى دوهرا دون رحلة طويلة محفوفة بالمشقات - لابسبب طولها الجغرافي حسب بل بسبب البون الشاسع بين أصولي المتواضعة وبين الجائزة التي تنتظرني على سفوح الهيمالايا حيث أتطلّع للعمل كطيّار في القوة الجوية الهندية.

توقّفت أول الأمر في دلهي لإتمام المقابلة الأولى في مديرية التطوير

التقني والإنتاج التابعة لوزارة الدفاع الهندية، وبّرهنتُ في المقابلة ثقتي الواضحة بنفسي كما أن المقابلة ذاتها كانت يسيرة للغاية عليّ بحيث لم أضطرّ معها على دفع نفسي لبلوغ أقصى تخوم معرفتي العلمية والتقنية. مكثتُ أسبوعاً كاملاً في دلهي ثم واصلت رحلتي نحو دوهرا دون لحضور مقابلتي الثانية أمام لجنة إختيار طيّاري القوة الجوية، ولابدّ لي في هذا المقام القول أنني كنت في بواكير العقد الثالث من عمري وبالكاد كنت قد بدأت للتو معرفة الوسائل المناسبة التي ينبغي أن أعرّف نفسي من خلالها للأوساط الرسمية وحلقات العالم الأوسع من تلك التي خبرتها من قبل، ولازلت أذكر تلك السنوات التي غادرت فيها راميسوارام ومكثت في مدنٍ أكبر بقصد إتمام دراساتي حيث كنت آنذاك صبياً يافعاً خجولاً مقيّد اللسان، ومنذ تلك السنوات المبكرة من حياتي أدركت ضرورة العمل على تطوير نوع من الثقة اللازمة لتثبيت أركان شخصيتي وتدعيمها وامتلاك الطلاقة في التعبير عنها بكلمات مناسبة، وقد عملت جاهداً على تحقيق هذا الهدف من خلال التواصل مع أشخاص عديدين ذوي خلفيات ثقافية وإجتماعية متباينة على الرغم من أن ذلك الجهد لم يكن يسيراً أبداً ولطالما عانيت فيه من أوقات ملأتني فيه مشاعر الإحباط والخيبة، ولكن عندما جاء الوقت الذي أنهيت فيه دراساتي ومضيت للبحث عن عمل مناسب لي كانت شخصيتي قد تطوّرت إلى حدود جيدة صرت معها قادراً على التعبير عن أفكاري بوضوح باللغتين الإنكليزية والتاميلية.

بالعودة إلى مقابلتي أمـام لجنة إختيار طياري القوة الجوية فقد أدركت - بعدما بدأت بالإجابة على الأسئلة الموضوعة أمامي - أن اللجنة كانت تبحث عن نوع خاص من الذكاء والألمعية في المترشحين

ولم تكتفِ بالمؤهلات الهندسية العامة، ومن الطبيعي أن تكون اللياقة البدنية والسلوك المتسم بالكياسة والإتزان بين أهم السمات التي دققت فيها اللجنة. قدّمت أقصى مايمكنني في ذلك اللقاء، وقد رغبت بكل جوارحي في الحصول على تلك الوظيفة منذ زمن طويل، وبرغم تصميمي وأدائي الجيد فقد كنت قلقاً، وبرغم ثقتي العالية بنفسي فقد كنت في الوقت ذاته مشدوداً غير متماسك الأعصاب. أعلنت النتائج آخر المطاف وجاء ترتيبي تاسعاً بين خمسة وعشرين متقدّماً للمقابلة، وكان ثمة ثمانية مقاعد فقط؛ الأمر الذي عنى فشلي في تحقيق حلمي بأن أكون طياراً في القوة الجوية الهندية. لازلت أذكر حتى يومنا هذا الوخز الذي ألمّ بقلبي وأنا أحاول أن أتفهّم حقيقة ماجرى؛ فحيثما ينكسر الأمل الأثير في تحقيق طموح بداخلك فستستولي عليك حتماً مشاعر اليأس والخواء وأنت ترى حلمك وهو يتهاوى أمام ناظريك، وأذكر أنني ركضت خارجاً بعد أن رأيت النتائج؛ إذ ضاقت أنفاسي حينها وأسرعت في طلب الهواء في الفسحة الواسعة خارج الغرفة بعد أن شعرت أن الجدران ضاقت عليّ وتكاد تطبق على أنفاسي وتحرمني آخر نسمة هواء متاحة لي، وقد أرخيت العنان لنفسي ومضيت أتمشى على غير هدى حتى بلغت حافة منحدر صخري فجلست بمحاذاته وأنا أتطلع في المياة الفضية المتوهجة التي تملأ البحيرة أسفل المنحدر ورحت أسائل نفسي: ماالذي ينبغي أن افعله في الخطوة اللاحقة؟ كان ينبغي تبديل خططي وإعادة تقييم أسبقياتي وقررت آخيراً الذهاب لبضعة أيام لمنطقة ريشيكيش(١٠) ومحاولة ترتيب مسار جديد لحياتي.

١٠- ريشيكيش Rishikesh: مدينة تقع على تلة محاذية لجبال الهملايا وتوصف بأنها عاصمة اليوغا بكل فنونها حيث الطبيعة والسلام الداخلي والهدوء والكثير من التأمل والبعد عن المراكز المدينية المزدحمة التي تعكّر صفو الروح والعقل. (المترجمة)

وصلت ريشيكيش صباح اليوم التالي وأخذت على الفور غطسة في مياه نهر الكانغا - ذلك النهر الذي سمعت الكثير عنه وهاأنا أراه وأختبر مياهه للمرة الأولى في حياتي، وقد أخبِرتُ عن صومعة لممارسة تعاليم السيفاناندا(١١) تقع على تلة قريبة فمضيت لها مشياً على الأقدام، وفي اللحظة التي وطأت فيها قدماي أرض الصومعة شعرت بإهتزاز غريب يجتاحني كان مثل إحساس بسلام داخلي شبيه بالبلسم لروحي القلقة، ولمحت على الفور رجالاً روحانيين بلباسهم التقليدي المعروف وهم يلتحفون الأرض في حالة تأمل عميق مسربل بسكينة شاملة، وكنت أتأمل أن أحدهم سيمتلك القدرة على الإجابة عن التساؤلات التي تنهك روحي وسيخفّف من الأعباء التي تكدّست على كاهلي. رُتّبَ لي لقاء عاجل مع المعلّم الأكبر في الصومعة و لم يكن كوني مسلماً بالأمر المهم له بأي حال من الأحوال، ولكنه قبل أن أفتح فمي وأتكلم سألني ماالذي يملأ قلبي حزناً ومرارة؟ وهنا تساءلت في سرّي كيف عرف بشأن التطورات الحزينة التي طرأت على حياتي مؤخراً قبل أن أحكي أي شيء بشأنها، ثم راح يسمع مني ماحصل لي في هدوء كامل و لم يقاطعني البتة، وفي خاتمة كلامي راح يغسل الأدران المقلقة التي أمضّت روحي بإبتسامة تنمّ عن سلام روحي عميق، وكانت كلماته اللاحقة التي قالها لي هي الكلمات الأكثر تأثيراً التي سمعتها في حياتي:

«... تقبّل قدرك وامضِ في حياتك قدماً. لم يكن مقدّراً لك منذ

---

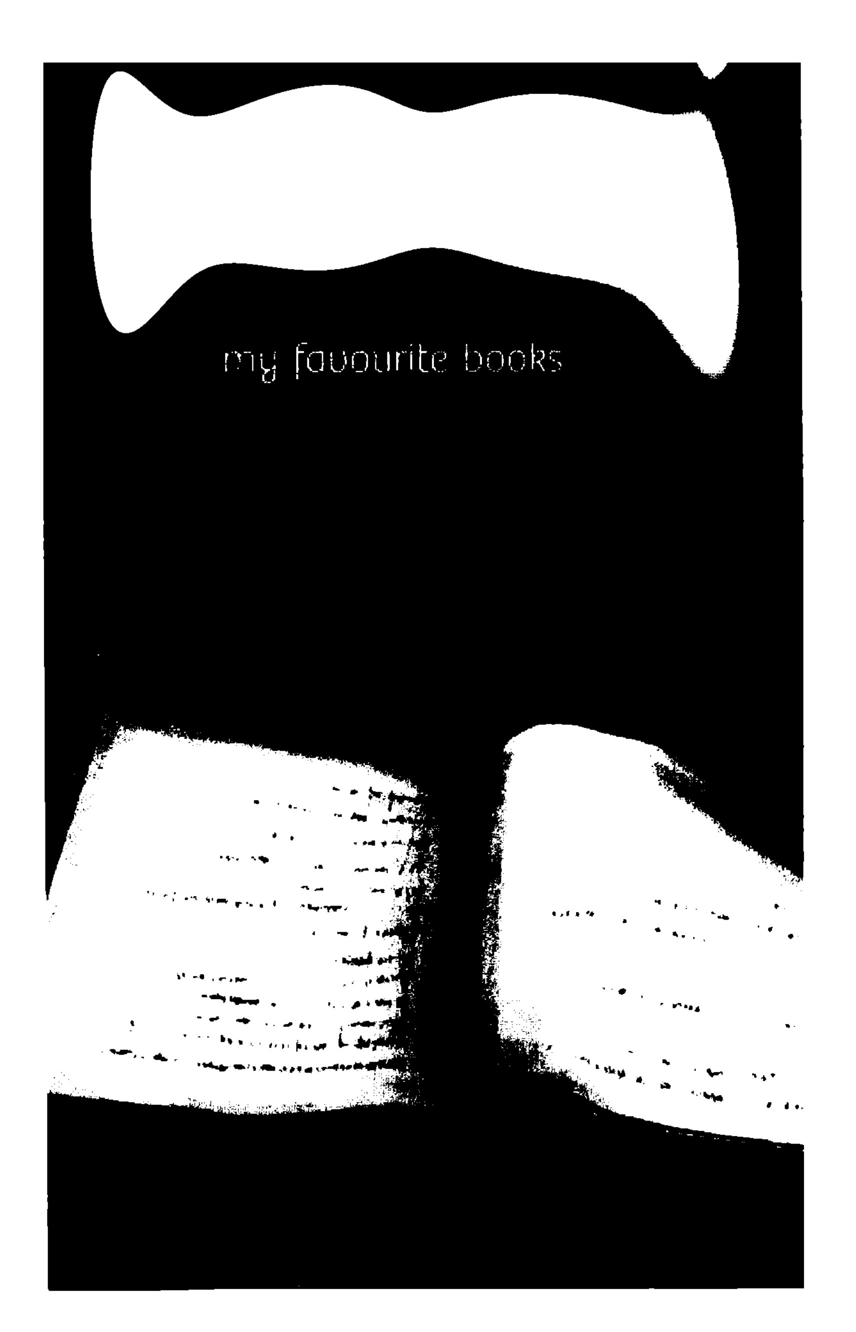
١١ - السيفاناندا Sivananda: مجموعة من التعاليم الشبيهة باليوغا التي ترمي للإرتقاء بصحة ونوعية حياة الممارسين لها من خلال الوسائط الخمسة التالية: التمرين المناسب، والتنفس المناسب، والإسترخاء المناسب، والحمية الغذائية المناسبة، والتفكير الإيجابي. (المترجمة)

البدء أن تكون طياراً في القوة الجوية. إنّ ماقُدّر لك أن تكونه لم تنقشع عنه الغشاوة بعدُ ولكنه مقدّر لك منذ الأزل. إنسَ أمر هذا الفشل؛ فهو قدر مقدور لم يكن منه بدّ لجعلك تنقاد في طريقك المرسوم. إبحث - عوضاً عن الغرق في دوامة الحزن - عن الهدف الحقيقي من وراء وجودك، وضع نفسك في تسليم كامل طوع إرادة الله...».

ترك هذا الدرس العميق إنطباعاً مؤثراً في عقلي. لماذا، حقاً، نصارع القدر ذلك الصراع غير المجدي؟ أنا واثق أن فشلي الراهن كان جزء من خطة اكبر أرادها الله لي، ورحت أقلّب هذه الفكرة في عقلي مراراً وأنا في طريق عودتي إلى دلهي، وعندما وصلت دلهي بلغني نبأ قبولي مساعداً علمياً أقدم في مديرية التطوير التقني والإنتاج بوزارة الدفاع الهندية، وعندذاك أبطلت حلمي بالطيران والإنضمام للقوة الجوية الهندية، وبدلاً من تلك المهنة كان في إنتظاري الكثير من العمل الذي ينبغي إنجازه وكان يترتّب عليّ وضع كلّ طاقات عقلي وروحي في العمل الجديد الذي أسنِد إليّ.

إذن، بدأت حياتي العملية على النحو الذي حكيت عنه فيما سبق، وأنا واثق أن الكثيرين من أمثالي ممّن إمتلكوا أحلاماً ساحرة لابدّ قد إعترضتهم في حياتهم عقبات من شتى الأصناف غير المتوقعة، وحينها ينبغي علينا جميعاً أن نعيد النظر في غاياتنا وان نعيد تكييف مساراتنا. إن كل عثرة تواجهنا تعلّمنا شيئاً جديداً بشأن حياتنا وقدراتنا الذاتية وشخصياتنا غير المستكشفة، وعندما نواجه هذه العقبات ونتغلب عليها فإننا نقع على مناجم إحتياطية مجهولة من الشجاعة والجّلد والمطاولة في دواخلنا لم نختبرها من قبلُ ولم نعرف بوجودها أصلاً، ووحدها اللحظات التي نواجه فيها الفشل هي مايجعلنا ندرك وجود

تلك الإحتياطيات الثمينة في دواخلنا حيث بقيت ماكثة طول الوقت من غير أن ننتبه لها، وكل مايتوجّب علينا فعله حينذاك هو أن نعثر على تلك الإحتياطيات ونواصل المضي قدماً في حياتنا."


my favourite books

كُتُبي المفضّلة

عندما أتحدث مع الشباب في كل مكان من أرجـاء الهند، غالباً مايسألني هؤلاء الشباب سؤالاً ثابتاً لايكاد يتغير في كل لقاءاتي معهـم: ماهي كتبك المفضّلة؟ ورغـم أن الحياة الحديثة قد غيّرت الكثير من عاداتنا لكن القراءة لم تزل واحدة من أكثر الفعاليات رواجاً وشعبية في بلادنا، ومع وجود هذا الكمّ الكبير من الصحف اليومية والمجلات والكتب لم تعد ثمّة مجاعة للقراءة في أي حقل نختاره. إن واحداً من الأمور الباعثة على التفاؤل وبهجة القلب أن زيادة معدّلات إنعدام الأمية في القراءة والكتابة قد ترافقت مع نمو ثابت في الطلب على قراءة شتى أنواع الكتب، وأرى أن هذا النمو يُرينا أن الناس لاتطلب التعليم المدرسيّ بقصد إمتلاك القدرة على القراءة والكتابة فحسب بل لأجل تحسين قدراتهم على التفكير وتنمية قدراتهم على الفهم، وتعمل القراءة كما هو معروف على تنمية هذه الخصال الثمينة، ولاأظن بعد كل هذا أن تشجيع عادة القراءة بين كل الناس يمكن أن يلامس حدوداً نهائية بل ثمة المزيد دوماً ممّا يمكن فعله في هذا المجال.

بقدر مايتعلق الأمر بي على المستوى الشخصي فقد كانت الكتب على الدوام أصدقاء خُلّصاً لي، وقد حصل وإكتشفت بعض الكتب عندما كنت صغيراً للغاية و لم أنسَ تلك الكتب في الأوقات اللاحقة،

وفي العادة أرى هذه الكتب كأصدقاء أمسكوا بيديّ وقادوني بإخلاص في كل أطوار حياتي ولطالما ضخّت كلماتهم المعنى في مواقف محددة خبرتها عندما كنت أريد فهم العا لم الذي أراه حولي.

حصل وأن صادفت في حياتي الكثير ممّن أحبوا الكتب وشاركوني حبّي للكتب، وثمة واحد من هؤلاء على وجه التحديد لازالت ذكراه عالقة بذاكرتي لأنه مدّ يد العون لي عندما لم يقبل شراء كتاب يعود لي!! وإليكم حكايته: حصل الأمر منذ سنوات بعيدة عندما كنت أدرس في معهد مدراس التقني MIT، وكنت حينها قد أصبحت للتوّ مولعاً بالأدب الروسي واقتنيت نسخة من كتاب في ذلك الأدب ومضيت أقرأه بشغف عظيم، وحصل في الوقت ذاته أن تطلّب الأمر مني الذهاب في زيارة لمنزلنا تستغرق بضعة أيام و لم يكن في محفظتي كالعادة آنذاك مايكفي من المال – بل حتى لم يكن في محفظتي مايكفي لشراء تذكرة قطار إلى راميسوارام!! و لم يكن أمامي من حلّ لمعضلتي المالية تلك سوى بيع كتاب الأدب الروسي الذي كنت مستمتعاً بقراءته أقصى إستمتاع؛ لذا مضيت إلى سوق في مدراس يدعى سوق (مور) وكان مساحة مغطاة حيث تحصل عمليات بيع وشراء الكتب إلى جانب كل البضائع الأخرى، ولكن ماأدهشني في السوق وجود مساحة خلفية صغيرة فيه يمكن فيها شراء وبيع الكتب المستعملة، وكان في تلك المساحة محل صغير إعتدت زيارته لأن مالكه غدا صديقاً لي وقد عرّفني على الكثير من الكُتّاب اللامعين كما ساعدني في تلبية مطالبي النهمة التي لاتشبع من القراءة وذلك بأن زوّدني بالكثير من الكتب الممتعة وتلك التي تدفع المرء إلى الإرتقاء المتواصل. عندما وقفت أمام الرجل ذلك اليوم وأنا أبوح له برغبتي في بيع كتاب الادب الروسي تفرّس

الرجل فيّ وارتسمت على وجهه نظرة هي مزيج من شفقة وحزن؛ فقد حدس أنني لاأرغب في بيع الكتاب لكنه عرف في الوقت ذاته السبب الذي يضطرّني لبيعه، ولكن وعلى نحو مفاجئ خطرت للرجل فكرة رائعة في بساطتها وكفيلة بحل معضلتي المالية أيضاً. لماذا لاأترك الكتاب عنده كنوع من الرهن؟ سيقرضني الرجل الآن بقدر ماكان سيعطيني من المال لو قبل بشراء الكتاب مني، وعندما يتوفر لي المال المساوي لمبلغ القرض يمكن أن أسدده له وأستعيد كتابي، وقد وعدني الرجل انه لن يبيع الكتاب لأي أحد خلال تلك الفترة. لم يكن ثمة حدود لفرحي في تلك اللحظة التي تغيّرت فيها حظوظي وصار بمقدوري السفر بالقطار إلى بلدتنا والإحتفاظ بكتابي في الوقت ذاته، ولست حتماً في حاجة للقول أن ذلك الرجل الطيب المُحبّ للكتب وفى بوعده وأعاد لي الكتاب لاحقاً، وظل الكتاب معي لسنوات كثيرة لاحقة تذكاراً للصنيع الجميل الذي ينطوي عليه العالم الغريب الذي يحيا في أجوائه عُشّاق الكتب!!.

بدأتُ بقراءة الكلاسيكيات الإنكليزية أول مرة عندما بلغت السنة الأخيرة من دراستي في كلية القديس جوزيف، وخلال تلك الأوقات إكتشفت أعمال ليو تولستوي، والتر سكوت، توماس هاردي. كانت سياقات الحكايات في الأعمال التي كنت أقرأها آنذاك غريبة عنّي بالكامل كما أن اللغة كانت مختلفة عمّا عهدته من قبل، ولكن حكايات العلاقات الإنسانية وتصويرها للمجتمع جذبتني بقوة هائلة. بعد تلك الفترة من القراءات الأدبية توجّه ولعي نحو فلاسفة محدّدين وبدأت أستطيب القراءة في العلم وبخاصة الفيزياء. في هذا الموضع أتذكر حكاية بشأن ألبرت آينشتاين: فعندما كان في الثانية عشرة أعطاه معلّمه

المشرف (ماكس تالمود) كتاباً في الهندسة الإقليدية، وقد عمل ذلك الكتاب على فتح عقل آينشتاين الشاب وتعريفه بمفاهيم التفكير المجرّد وكيفية إستكشاف الحقائق الكونية، ومنذ ذلك الحين أدرك آينشتاين القدرة الخارقة التي يختزنها العقل البشري.

قرأت مع السنوات عدداً يستعصي على الحصر من الكتب، ولكن لو سُئلت أي الكتب أعزّ لديّ أو أيها أثّر فيّ بأعمق ممّا فعلت الكتب الأخرى فسأختار ثلاثة من تلك الكتب:

الكتاب الأول بعنوان (ضوء من مصابيح عدّة Light from Many Lamps (حرّرته الكاتبة (ليليان إيكلير واتسون Lillian Eichler Watson) وحصل أن وجدت الكتاب بمحض مصادفة عام ١٩٥٣ في محلّ الكتب ذاته الذي رهنت كتابي عنده في مدراس (لاأستطيع وصف المباهج التي تنتاب المرء عندما يجيل بصره في التمعّن بعناوين الكتب المزدحمة في أي مخزن للكتب ليعثر على جوهرة مثل هذا الكتاب بين الجواهر العديدة الأخرى من مثيلاته). أرى أن هذا الكتاب واحد من أهمّ رفقائي و لم أستطع البقاء بعيداً عنه يوماً ما ولطالما قرأته وأعدت قراءته خلال السنوات التي إمتلكت فيها نسخة منه. يُعدُّ (ضوء من مصابيح عدة) كتاباً كلاسيكياً باعثاً على الإلهام ويضم كتابات لكتّاب عديدين، وقد عملت المحررة على سرد حكايات ملهِمة كتبها العديد من الكتّاب وأوضحَتْ في السياق ذاته الدافع الذي وقف وراء كتابة هذه السرديات والدروس التي يمكن تعلّمها منها. يمكنني القول اليوم أن ليس ثمة مناسبة مؤلمة ولجتها من غير أن تجلب لي حكايات هذا الكتاب العزاء والسلوى أو ترفع من ثقتي بنفسي وتمدّني بالعزيمة في الأوقات التي كنت فيها بمسيس الحاجة للنصيحة والدعم، وكلّما كانت

مشاعري تميل للجنوح صوب الخذلان والوهن كان هذا الكتاب يعمل على إعادة التوازن والإستقرارية العقلية والروحية لتفكيري. إن نسختي من هذا الكتاب تقادمت إلى حدّ دفعني لتجليدها وإعادة تجليدها مرات عدة، وكم كانت سعادتي عظيمة حين أهداني صديق لي نسخة حديثة لطبعة جديدة من الكتاب قبل عدة سنوات.

أما الكتاب الثاني الذي كان دائم الأثر في تفكيري فهو كتاب ثيروكورال Thirukural الذي كتبه ثيروفاليوفار Thiruvallivar قبل ألفي سنة خلت، وهو مجموعة من ١٣٣٠ مقطعاً منظوماً من الحِكم والمأثورات التاميلية التي تدعى (كورال)، ويحكي العمل تقريباً عن كل جانب من جوانب الحياة ويعدّ إحدى النفائس الأدبية في الأدب التاميلي، وبالنسبة لي فقد مثّل هذا العمل نوعاً من (وثيقة سلوك) إلتزمتها في حياتي. يعمل هذا الكتاب حقّاً على الإرتقاء بالعقل البشري – تمعّنْ مثلاً في هذا المقطع من الكتاب والذي أعدّه من المقاطع الأثيرة إلى نفسي:

Ulluvathellam uyarvullal matratu Tallinum tellamai nirttut

فكّر بالإرتقاء إلى أعلى وليكن هذا هو الفكرة الوحيدة التي تملأ عليك حياتك، وحتى لو لم تحقق مافكّرت فيه فإن الفكر وحده كفيل بالإرتقاء بك.

الكتاب الثالث الذي أودّ ذكره في هذا المجال يدعى (الإنسان ذلك المجهول Man the Unknown) كتبه طبيب يدعى أليكسيس كاريل Alexis Carrel حاز على جائزة نوبل واستحال فيلسوفاً في وقت

لاحق من حياته. يحكي الرجل في كتابه هذا كيف يمكن شفاء الأجساد العليلة عندما يتمّ التعامل مع الجسد والعقل ككتلة واحدة متكاملة، وقد أجاد المؤلف وعلى نحو عظيم الوضوح والألمعية في وصف الجسد البشري وإطراء سمات الذكاء والتكامل فيه، وأرى أن من الضروري أن يقرأ الجميع هذا الكتاب وبخاصة هؤلاء الذين يعدّون أنفسهم لولوج عالم الدراسات الطبية.

أثّرت فيّ النصوص الدينية للديانات المختلفة المعروفة تأثيراً عظيماً، وقد درستها بدقة وتوقّعت أن أجد فيها جواباً للأسئلة الكبرى التي لطالما طرقت عقلي بشدة خلال المراحل المختلفة من حياتي: القرآن، الفيدا، الباغافاد غيتا - هذه كلّها حملت في تضاعيفها إستبصارات فلسفية عميقة بشأن معضلات الإنسان، وقد ساعدتني بالفعل على تجاوز الكثير من المعضلات التي جابهتني في أوقات مختلفة من حياتي، ولأجل أن أوضح الطريقة التي يمكن بها لهذه النصوص تقديم البصيرة اللازمة في أي جانب من جوانب الحياة دعوني أستحضر بعض الأمثلة: بعد أن عملت لبعض الوقت مهندساً للملاحة الجوية في بنغالور أستدعيتُ إلى مقابلة لشغل وظيفة كمهندس صواريخ في الهيئة المسماة INCOSPAR - الوكالة الفضائية المستحدثة منذ بعض الوقت على يد الدكتور فيكرام سارابهاي، وكنت قلقاً وعصبي المزاج للغاية قبل المقابلة و لم أتوقع ماأنا مقبِلٌ عليه، غير أن الكلمات التالية المنقولة عن الباغافاد غيتا والتي سمعتها على لسان لاكشمانا ساستري (صديق أبي وكاهن المعبد الهندوسي في راميسوارام) أمدّتني بالعزيمة والشجاعة: «كل الكائنات تولد ويُلقى بها في أتون الأوهـام... التي أحكمت وثاقها فينا بمعونةٍ من نزوعات مزدوجة تنشأ من الرغبة والكراهية،

ولكنْ وحدها الكائنات ذات الأفعال الفاضلة والتي تلاشى الإثم من أرواحها... هي التي نالت الخلاص من تلك الأوهام وثبتت في نذور عبادتي...»، وحينها قلت لنفسي أن الطريقة الفضلى لكسب النجاح هي بأن أتصرف على أساس أن ليس ثمة حاجة قاهرة أخشاها وتدفعني للنجاح، وهذا ماحصل ومضيت للمقابلة مسكوناً بهذا التوجّه.

نما المشروع الفضائي الهندي وكان عليّ أن أعمل ضمن هذا المشروع بمعية الكثير من الناس الذين ساهموا في بناء هذا المشروع وتشكيل معالمه الباهرة، وتعود علاقتي بمنظمة البحث الفضائي الهندي ISRO إلى الأيام الأولى التي شهدت تأسيسها، وكثيرة هي المرّات التي أستعيد فيها ذكرياتي بشأن الطريقة التي تأسست بها هذه المنظمة ونمت وكذلك بشأن الناس العظام الذين عملوا على جعلها مؤسسة راسخة لها هيكلها وتمتلك أهدافاً رائعة أمدّت بلادنا بالكثير من الخدمات المميزة، أراني وسط هذا السيل من الذكريات مدفوعاً لتذكّر آية Shloka من كتاب الباغافاد غيتا تقول: «أنظر إلى الزهرة كيف تنشر بكرم العطر والعسل حولها، وعندما تنجز عملها فإنها تذوي في سكينة. إجتهد بكل قدرتك لتكون مثل الزهرة متواضعاً ومن غير إدّعاء برغم كل صفاتها الطيبة». كان الرجال العنيدون والشجعان الذين عملوا في المشروع الفضائي الهندي شبيهين كثيراً بأزاهير الباغافاد غيتا؛ فقد عملوا على رسوخ عمل المنظمة وفتحوا مسالك واسعة أمام أفكار جديدة غير مطروقة في صمت ونكران ذات ودأب قل نظيره، ويصدّق الأمر ذاته عندما كنت أعمل في منظمة البحث والتطوير الدفاعي DRDO ضمن برنامج منظومة الصواريخ البالستية الهندية المطوّرة محلياً؛ إذ تسنّى لي حينها أن أعمل بمعية الكثير من المهندسين والقادة اللامعين والمكرّسين

الذين تفانوا في أداء الواجبات المنوطة بهم - هؤلاء الذين متى سمعت بأسمائهم ترنّ على الفور في أذنيّ الكلمات القرآنية التالية: «**نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء**».

على صعيد حياتي الشخصية، منحتني قراءة النصوص المقدّسة راحة عظمى وجعلتني أختبر الحكمة الكامنة وراء تقلبات الحياة التي عشتها. عندما خسرت أبويّ معاً خلال سنة واحدة أتذكر لليوم كيف مضيت للصلاة في مسجد راميسوارام وأنا أتآكل من جراء الندم والحزن لعدم حرصي على اللقاء المنتظم بأمي قبل أن ترحل بعيداً عن هذا العالم، وسرعان ماحضرني النص القرآني الذي يخبرنا أن مغادرتنا لهذا العالم أمر لامناص منه ولاشيء يبقى إلا الله: «**إنّما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم**».

كان الشعر واحداً من روافد مملكة الأدب التي أحببتها مبكراً في حياتي، وقد لعبت أعمال كلّ من تي. إس. إليوت، لويس كارول، وليم بتلر ييتس دوراً عظيماً في حياتي وألقت بظلالها على عقلي مراراً كثيرة وبخاصة عندما كانت توفر لي السياق والمعنى لفهم الحوادث التي مررتُ بها. في ميدان بحوثي التي تخص الحقل العلمي، على سبيل المثال، كم كانت السطور التالية التي كتبها لويس كارول ملهمة لي:

دع الحرفنة، والطموح، والمزاعم
تُروى في أحضان العقل
حتى يستحيل الضعف قدرة
حتى تستحيل الظلمة نوراً
حتى يستحيل الخطأ صواباً

وعندما كان عملي يستحيل دورة لانهائية من ساعات العمل التي تقصم الظهر، وتتداخل الأيام مع بعضها بحيث لايمكن تمييز يوم عن الآخر فإن كلمات كولردج التالية كانت تصف حالتي العقلية بكل دقة:

يوماً بعد يوم، يوماً بعد يوم
علقنا، بلا نفس، ولاحركة
متسمّرين حيث نحن مثل سفينة ساكنة
فوق محيط ساكن

كان عليّ غالب الأحيان أن أعمل محاولاً الايفاء بمتطلبات التوقيتات الزمنية الصارمة التي تبدو مستحيلة وخارج القدرة البشرية. كان أحد زملائي في العمل يدعى (نارايانان) وكان قائد المجموعة و لم يكن يطيق صبراً على إنجاز هدف الوصول إلى تصنيع الصواريخ البالستية، وقد حصل وقال لي مرة: «أذكرْ لي أي شيء تحتاجه وسآتي لك به ولكن لاتطلب الوقت أبـداً!!» فما كان أمامي سوى الضحك واستذكار الكلمات التالية للشاعر تي. إس. إليوت:

بين مفهوم الشيء وخلقه
بين إبداء المشاعر والإستجابة لها
يكمن ظلّ الأشياء

هـؤلاء كانوا بعضاً وحسب من الكُتّاب والأعمال التي أثّرت عميقاً في عقلي، وهم - كما ترونهم - مثل أصدقاء طال عهدك بهم: ودودون، طافحون بالمعنى ولاينفكون عن بعث الثقة والإلهام فيك. كانوا يعلمون تماماً متى يطرقون بوابة عقلي، كما كانوا يعلمون أيضاً الأوقات العصيبة أو المحزنة التي أجتازها والأوقات التي أكون فيها

بمسيس الحاجة للتأمل، وفي الوقت ذاته كانوا يشاركونني مباهجي وأعمق سعاداتي. في عصرنا هذا الموسوم بالإتصالات السهلة والسريعة وحيث باتت المعلومات تنهال علينا مضغوطة بوحدات (البايتات) لاينبغي السماح بخسارة سحر الكلمة المكتوبة وفتنتها الآسرة، وقد كتبت مرة القصيدة التالية في إطراء الكتب وغالباً ماأقرأها في ندواتي مع الشباب، وهي تلخّص بأجلى صورة ماأكنّه من مشاعر تجاه الكلمة المكتوبة:

كانت الكتب دوماً أصدقائي الخُلّص
رافقتني لأكثر من خمسين عاماً
منحتني الكتب الأحلام
الأحلام التي أنتجت مهمّات
ساعدتني الكتب على النهوض بأعباء تلك المهمات بثقة
منحتني الكتب الشجاعة في أوقات الخذلان
الكتب الجيدة كانت بالنسبة لي ملائكة
مسّت شغاف قلبي برفق كلّ آن
لذا أطلب إليكم أصدقائي الصغار
أن تكون الكتب مثل أصدقاء لكم
الكتب هي أصدقاؤكم الطيّبون


a brush with fire

مشكلة النار المتوهّجة

سبق لي في فصل مبكر أن ذكرتُ بعضاً من تجاربي المفعمة باليأس والفشل، وبيّنت في الوقت ذاته الدروس المستفادة من تلك التجارب، وقد فهمت تماماً الآن أنّ تلك التجارب متى ماخفّت وطأتها وتلاشت مشاعر الإحساس بالفشل والخيبة الملازمة لها فإنها يمكن أن تغيّر طرُقنا في التفكير بعد أن نستعيد تماسكنا ورؤيتنا. إنّ تلك التجارب تؤثّر حتماً وعلى نحو عميق للغاية في أرواحنا وتضعنا وجهاً لوجه مع أكثر الموضوعات الوجودية تأثيراً في حياتنا، وعندما تحصل تلك التجارب ينبغي أن نمسك بها بقوة ونحلّل الطرق التي نستجيب بها نحوها - هل ندع تلك التجارب تمرّ من فوقنا كما الأمواج أم نحتاج للغطس في أعماق أبعد مدىً لإقتناص القدرات المستبصرة وجعلها تضيء حياتنا؟

لستُ في حاجة إلى القول أنّ تجارب عميقة ذات تاثيرات طاغية هي في العادة مايتسبّب في تحريك قناعات أساسية في دواخلنا وفي أكثر المستويات جوهرية: عندما لانستطيع العيش طبقاً للمعايير والتوقعات العالية التي يطلبها منّا هؤلاء الذين نحبّهم ونقدّرهم أكثر من أيّ شيء آخر في الوجود، أو عندما نغدو مسؤولين عن تفاصيل في أشياء تهمّ حياة الملايين وتؤثر فيها بقوة، أو عندما نواجه مواقف نكون فيها

أزاء حياة أو موت – هذه بعضٌ فحسب من البرهات التي يشهد فيها إحساسنا بالذات والأنا تغييراً حاسماً بالضرورة.

يمكنني أن أستعيد بعضاً من تلك البرهات الحاسمة التي حصلت معي في حياتي العملية: عندما كنت أقود الفرق العاملة في مشروع SLV-3 الخاص بعربة الإطلاق القمرية، وكذلك في مشروع الصاروخ أغني – المقذوف الهندي الأول المصنّع محلياً بالكامل، فإنّ التوقعات بي وبالفرق العاملة تحت قيادتي بلغت عنان السماء من جانب الحكومة ومن جانب عامة أبناء الشعب كذلك، وكان الضغط الإعلامي الخاص بمشاريعنا ينال تمحيصاً وإهتماماً عظيمين طول الوقت رغم أنه لايُقارَن بالتركيز الإعلامي الهائل هذه الأيام، وحصل أن فشل الإطلاق الأول لعربة SLV-3 كما شهد مشروع الصاروخ أغني هو الآخر صعوداً وهبوطاً ومعضلات هائلة في مرحلة ماقبل الإطلاق، وقد وضعتني هذه المشاريع أنا والعاملين معي تحت ضغوطات هائلة وجعلتنا نشعر على الدوام بهواجس يصعب التعايش معها؛ لأن عدم إتمام العمل كاملاً ومنذ الإطلاق الأول ينفي حتماً كل النجاحات المتحققة الأخرى التي أنجِزت وسط ظروف وعقبات عسيرة للغاية. إن الأيام التي قضيتها في إستبطان وتحليل أسباب الفشل الأولية لذينك المشروعين ستبقى مزروعة في ذاكرتي على الدوام، ولكنّ مايترك أثراً أعظم في الروح هو تلك البرهة التي ترى فيها الناس الذين لطالما عرفتَهم وعملتَ معهم أو هؤلاء الذين تعتمد عليهم في تنفيذ الأفكار والتصاميم وهم يبدون تكريساً غير معهود وربما يعانون معاناة كبيرة أثناء العمل، ولطالما شهدت مثل تلك المواقف خلال حياتي العملية حتى أنني كنت أقف عاجزاً عن التعبير أزاء ماكنت أشهده.

في الستينات والسبعينات (من القرن الماضي) كنت أعمل في محطة ثومبا الإستوائية لإطلاق الصواريخ حيث كنّا نصنّع في تلك المحطة وتحت قيادة الدكتور فيكرام سارابهاي صواريخنا ومقذوفاتنا وعربات الإطلاق القمرية الخاصة بنا، وكنا في الوقت ذاته نتعاون مع كل المختبرات المنتشرة في البلاد لتصنيع الحمولات المناسبة للصواريخ المُصوّتة sounding **(صواريخ تحمل اقماراً إصطناعية خاصة برصد الأحوال الجوية والتنبؤ بها، المترجمة)**، وكانت كل المختبرات الفيزيائية الهندية في طول البلاد وعرضها آنذاك مشاركة على نحو فعال في ذلك البرنامج، وكان لكل مختبر منها مهمته الخاصة المحددة في تطوير ذلك البرنامج وبناء الحمولة payload الخاصة به وكان ينبغي بالطبع أن تكون الحمولات متّسقة مع الهيكل الإنشائي للصاروخ. كان احد زملائي العاملين معي في مختبر تحضير الحمولات يدعى سوداكار، وكنّا أحد الأيام نعمل معاً على الجدول الخاص بما قبل الإطلاق وانهمكنا خلال إحدى المراحل في ملء حيّز ما بمزيج خطير من الصوديوم والثرمايت **(الثرمايت Thermite: مسحوق من حبات الألمنيوم وأوكسيد الحديد يولّد حرارة عظيمة عند الإشتعال، المترجمة)**. كان الطقس في ذلك اليوم حاراً ورطباً مثلما هي الحالة معظم الأيام في مدينة ثومبا الواقعة على الساحل الشرقي من الهند، وكنّا أنا وسوداكار قد عملنا لوقت طويل ذلك اليوم وكانت الحرارة عالية لكننا لم نُلقِ بالاً لها، وبعد أن أتممنا ملء ست أوعية ذهبنا إلى غرفة الحمولات للتأكد من تقدّم العمل وفحص فيما لو كان ماأنجزناه من عمل قد تمّ على النحو المطلوب، وربما لأننا كنا آنذاك منغمسين تماماً في العمل فقد نسينا حقيقة راسخة في العلم: الصوديوم النقي يمكن أن يغدو شديد الخطورة متى مالامس الماء؛ لذا عندما إنحنينا لتفحّص أحد الأوعية سقطت قطرة عرق من جبين سوداكار في ذلك

الوعاء، وقبل أن نشرع في إتخاذ رد فعل مناسب أطاح بنا إنفجار قوي ودفعنا بعيداً عن الوعاء!! إختضّت الغرفة لوقع الإنفجار ولبثت بعض الوقت وأنا مشلول عاجز عن الإتيان بأي فعل فيما راحت النيران تلتهم الغرفة على عجل ونحن نرقبها بعيون مرتعبة ثم إنتشرت النيران في المختبر وراحت تقوّضه بعدوانية شرسة. كانت تلك النيران بفعل الصوديوم؛ لذا لم نستطع إستخدام الماء في إطفائها وكنا نعلم أن الماء سيفاقم في الخراب الذي حلّ بغرفة المختبر، وهاهو المختبر أمامنا نراه كتلة من جحيم مشتعل. لاحقاً، وعندما إستعدت تلك الحادثة وعشتها في خيالي مرة ثانية بدت لي مثل فلم يُعرَض بالحركة البطيئة: الحادثة، ثم الإنفجار، ثم النار التي إلتهمت المختبر بكامله، وفي حقيقة الأمر فإن الأمر كله حصل خلال بضع ثوانٍ وحسب، وقد أبدى سوداكار في تلك الحادثة شجاعة وحضوراً لم يغادرا عقلي أبداً؛ فقد كسر النافذة الزجاجية للغرفة بمحض يديه العاريتين ثم إستدار نحوي ومن غير أي خوف أو تردّد وراح يدفعني محاولاً إخراجي عبر تلك النافذة أولاً قبل أن يفكّر في القفز والنجاة بنفسه، وربما قد يرى البعض أن تلك الأفعال ماكانت لتستغرق سوى دقائق معدودات، ولكن عندما يأخذ المرء بالحسبان شدة الإنفجار والحرارة الفظيعة الناشئة عنه فإنه يدرك حينها شجاعة سوداكار ورباطة جأشه وتماسكه عندما قرّر إنقاذي من أتون النيران رغم أن ذلك القرار تسبّب له بحروق بالغة في جسده إلى جانب يديه النازفتين بفعل الجروح التي أصابتهما بسبب شظايا الزجاج الذي هشّمه سوداكار بيديه من غير أية حماية لهما.

بينما كنّا نترنّح مبتعدين عن غرفة المختبر التي إستحالت كرة نار ملتهبة رحت أربّت على كتف سوداكار شاكراً جميل صنيعه معي

عندما أنقذ حياتي بشجاعة، واكتفى الرجل من جانبه بالإبتسام والتمتمة ببضع كلمات ردّاً على كلماتي برغم الألم الذي كان يعانيه من جراء إصاباته الخطيرة، وقد أمضى بعد تلك الحادثة أسابيع عدة في المستشفى وهو يتعافى من إصاباته. بالنسبة لي لم تكن تلك الحادثة هي الأخطر بين الحوادث التي واجهتها في حياتي فحسب بل جعلتني أختبر وللمرة الأولى في حياتي المشاعر التي تنتاب من نجا من كارثة محققة وبخاصة عقب نجاته بفعل تضحية من قبل شخص آخر إرتضى بكل إرادته وغريزته أن يضع حياته موضع الخطر الداهم بقصد إنقاذ حياة شخص سواه - تلك الحادثة التي رأيت فيها أمراً مخجلاً لي إلى ابعد مدىً؛ إذ يختبر الناجون الذين تمّ إنقاذهم من خطر مميت خليطاً من المشاعر: الراحة، والشعور بالذنب، الشعور بالإمتنان وجميل الصنيع، الخ، وبالنسبة لي فقد جاءت لي تلك الحادثة بشعور شخصي إضافي من المسؤولية: إذا كان سوداكار قد رأى في حياتي ماهو ثمين يستوجب الحفاظ عليه وإنقاذه بأي ثمنٍ ومن غير مبالاة بسلامته الشخصية فإن من واجبي - أكثر من ذي قبلُ - أن أعمل على واجبنا المشترك بحيث لايتعرّض لأي تأخير من جراء تلك الحادثة المؤلمة.

لطالما مثّلت لي حكاية الشجاعة التي أبداها سوداكار تجاهي مصدراً ثابتاً للإلهام المستديم؛ إذ متى ماوجدت نفسي أسبغ أهمية على صغائر الأمور في الحياة، أو عندما أجد نفسي مفتقداً البصيرة في رؤية الصورة الأشمل وبخاصة عندما تغيب عن بالي حقيقة أنني محض فرد في بشرية تضمّ البلايين من الأفراد ولست بأكثر من ذرة هائمة في الكون، في كل تلك الأحايين أتذكّر هذا الرجل في المعقول في سخاء عطائه ونبله، وبرغم أنه كان عالماً - حاله حال اغلب العلماء العاملين كلّ منهم في

أداء واجبه المنوط به – لكنه تسامى فوق المخاوف الغريزية اللصيقة بكل فرد منّا وفكّر على الفور بضرورة إنقاذ حياة شخص آخر؛ لذا جاء عمله إستثنائياً وفريداً في نوعه.

ثمة حادثة أليمة أخرى تركت بصمتها في روحي و لم يزل قلبي يوجعني متى ماطافت بخيالي: تلك هي حادثة التحطّم الرهيب الذي جرت وقائعه في آراكونام عام ١٩٩٩ والتي حفرت بئراً من الحزن بداخلي وعدّلت في تشكيل الهيكل الذي تأسست عليه اناي الشخصية إلى الأبد، وبعد وقت قصير من حدوث تلك الفاجعة إستوعبت دروسها المهمة لكنّي أخفيت مشاعري الحزينة تحت جبل من العمل المُضنيّ، و لم يكن بمستطاعي لاحقاً الحديث عن تلك الحادثة إلّا بعد سنوات عدّة في سياق حديث لي كنت أتبادله مع صديق مقرّب لي تشاركتُ معه في كتابة كتاب – حينها إستطعت تفهّم عمق مشاعري الجريحة وإعادة إستذكار ماحدث في ذلك اليوم بعيداً عن الغرق في لجّة الندم والحزن.

في يوم ١١ كانون ثان ١٩٩٩ أقلعت طائرتان من بنغالور بإتجاه الخط الساحلي الممتد بين (آراكونام) و(تشيناي) في مهمة علمية بشأن منصة الإستطلاع المحمولة جواً ASP: كانت إحدى الطائرتين من طراز (آفرو) وحملت على هيكلها العلوي قبّة متحركة تشبه الصحن مثبتة على الجسم العلوي للطائرة، وقد إرتفعت تلك الطائرة نحو عشرة آلاف قدم في الهواء ثم أخذت مسارها المرسوم على طول الساحل حيث كان ينبغي فحص عمل جهاز الرادار المثبت فيها في منطقة ما ضمن الخط الساحلي، وكانت قد أقلعت قبل خمس عشرة دقيقة من إقلاع الطائرة الأولى ومن مدينة بنغالور ذاتها طائرة أخرى من طراز AN–35 قُصِد منها ان تكون الهدف المطلوب كشفه من قبل الرادار

المثبّت في الطائرة الأولى، وقد تحقق الكشف بالفعل وعمل الرادار لما يقارب الساعة والنصف بكل نجاح وكان كل فرد في فريق العمل راضياً وسعيداً بتلك النتيجة الممتازة للمنظومة الرادارية، وفي حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر من ذلك اليوم حطّت طائرة AN-35 على أرض المطار في آراكونام، وفي الوقت ذاته جرت ترتيبات لجعل طائرة (آفرو) تأخذ مسارها المرسوم لتحطّ في أرض آراكونام بنفس الوقت السابق تقريباً، وقد هبطت الطائرة بالفعل من ارتفاع عشرة آلاف قدم إلى خمسة آلاف قدم بكل سلاسة وكان كل شيء يجري بدقة ونجاح فائق، ولكن حصل فجأة عندما كانت الطائرة على إرتفاع يتراوح بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف من الأقدام أن إنخلع الطبق الدائري المثبّت فوقها وسقط على جسم الطائرة وهي على بعد خمسة اميال بحرية من أرض المطار؛ الأمر الذي تسبّب في حالة من اللاإستقرارية في أداء الطائرة ومن ثمّ تحطّمها مباشرة. كان على متن الطائرة ثمانية رجال ماتوا جميعاً في تلك الحادثة الأليمة.

وصلتني الاخبار الأليمة وأنا في جنوبي البلاد أحضرُ إجتماعاً لمجلس البحث الدفاعي؛ فقطعت إجتماعي على الفور ومضيت إلى بنغالور وهناك رأيت مارشال الجو قائد القوة الجوية أي. واي. تيبنيس حاضراً في موقع الحادثة. كانت بضعة الأيام التي أعقبت تلك الحادثة موجعة للغاية وجعلت قلبي ينفطر تماماً؛ إذ أتيح لي الإلتقاء بالعائلات المنكوبة – الزوجات الشابات ومع بعضهنّ أطفال يافعون، وتساءلت آنذاك: أي عزاء يمكن أن أقدّمه للزوجات المفجوعات؟ هل يكفي أن أقول لهنّ أن أزواجهنّ وابناءهنّ ماتوا في سبيل قضية مشرّفة تخصّ الجاهزية الوطنية للدفاع عن الهند؟ وهل أن قولي ذاك سيحمل السلوى

المطلوبة لهؤلاء الذين تحقّقت أسوأ مخاوفهم عندما فقدوا مُعيليهم؟ كنت عاجزاً تماماً عن الكلام ومصدوماً عندما أشارت إحدى الأمهات الشابات لرضيعها وهي تقول: «ترى من سيعيلُ هذه الروح الفتية ويقيم أودها»، فيما راحت أم أخرى تسألني ذلك السؤال الذي لازال يطارِدني حتى اليوم: «لماذا فعلتُم هذا بنا؟»

كان الإنفجار من الشدّة بحيث تعذّر علينا العثور على أية بقايا من جثث الرجال الثمانية، وكلّ ماكان في مقدورنا فعله هو ترتيب أكفان رمزية لهؤلاء الرجال من أجل راحة عوائلهم، وقد سجّينا تلك الجثامين في قاعة القوة الجوية وكان عليّ إرتجال كلمة هي بمثابة تحية وداعية لأرواح هؤلاء الرجال الذين إنطلقوا لتأدية الواجبات المطلوبة منهم في عصر ذلك اليوم غير أنهم لم يعودوا لعوائلهم ثانية، وعدتُ ليلة ذلك اليوم إلى غرفتي خائر القوى يمزّقني الحزن والالم والشعور بالذنب. كتبت تلك الليلة في مفكرتي اليومية:

المصابيح تختلف فيما بينها
لكنّها تبعث ذات الضياء
أنتم أعدتم لنا الأفراح الدنيوية
من حيث تظلّون في أعماق روحي

مـرّت السنوات وانتقلت من وظيفتي في المنطقة الجنوبية إلى راشتراباتي بافان وهناك أيضاً رافقتني تأوهات الأرامـل الثكالى الباكيات، وأحزان الآباء المحطّمين بفقدان أولادهم، ونحيب اليافعين اليتامى، وكم أوجعتني وكسرت قلبي حقيقة ان هؤلاء لم يكن بوسعهم إلقاء نظرة أخيرة على أحبائهم بل إكتفوا مضطرين بإلقاء نظرة سريعة

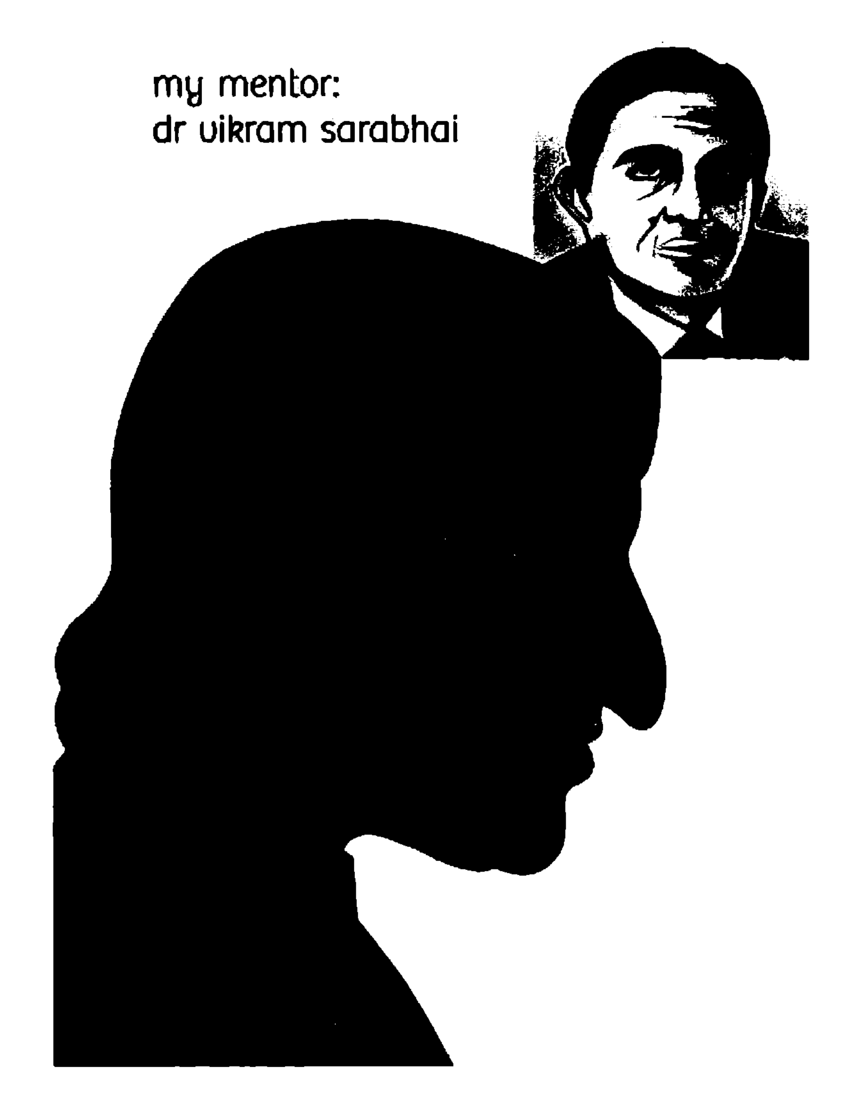
على أكفان رمزية، ولطالما تساءلت في سرّي: عندما يتمّ وضع الخطط الكبرى بشأن العلم والتقنية، هل يفكر أولئك الممسكون بزمام أعلى السلطات بالتضحيات التي يقدمُ عليها الأفراد العاملون في المختبرات وفي الميدان معاً؟ إن البلاغة السياسية لاتكفي وحدها لبناء أمة ما لم تُدعم بقوة التضحية والكدح والفضيلة - ذلك هو الطريق الحقيقي المؤدي لبناء الأمة.

عندما نتبوّأ مراكز تنطوي على ممارسة سلطة تجاه الآخرين غالباً مانصدّق أننا بلغنا المنتهى في حكاية نجاحنا، ولكن الحقيقة هي أن الوقت الذي نبلغ فيه مراكز سلطة هو الوقت المناسب أكثر من سواه من الأوقات للنظر في حجم التضحيات التي نهضت بها جموع الناس - تلك التضحيات التي أقمنا قلاعنا على أسسها. عندما كنت أتحدّث مع صديقي آرون تيواري بشأن هذه الحقيقة سألني: «مارسالتك من وراء هذه الحكاية؟»، وكان جوابي: «لاتتظاهر بأنك شمعة بل كن كالعثّة. تعلّم القدرة الكامنة في خدمة الآخرين؛ إذ يبدو أننا قد توغّلنا كثيراً في المظهريات القشرية الخادعة للسياسة وبتنا عالقين فيها بعد أن تلبّسنا إعتقاد خاطئ بأن تلك المظهريات السياسية هي مايعمل على بناء الأمة. إن التضحيات والكدح والبسالة التي قلّما رأيناها ماثلة امام الجميع هي مايساهم حقاً في بناء الأمة».

الآن، عندما أفكّر في تلك الحوادث وأسترجع صداها القديم - لابتأثيراتها المباشرة حسب بل بما قادت إليه من حوادث لاحقة -: سوداكار في المستشفى، التعويضات التي حصلت عليها العوائل المنكوبة من الحكومة جراء فقدان معيليها الرجال وبعد إجراءات معقدة طويلة ومرهقة، يغمرني الشعور بوحدة عميقة تجتاحني إجتياحاً؛ إذ في

برهات الحزن تكون وحيداً على الدوام، وفي تلك البرهات وحدها عادة تتكشّف ذاتك الحقيقية لك، وفي تلك البرهات وجدتّني أبلغ مدياتٍ أعلى من الوعي وبإدراك أعمق لحقيقة أن الأسئلة الخاصة بطبيعة الحياة والوجود كانت تقدح بدورها إستجابات أكثر نضجاً وتقود لأعماق جديدة غير مستكشفة من الحكمة. إن كل واحد فينا لابدّ أن يواجه حالات مثل الموت وإنكسار القلب، وإذا كان ثمة شيء جوهري تعلّمته خلال العقود الثمانية من حياتي على هذا الكوكب فهي أن تلك الحالات المترافقة مع الحزن هي أصدقاؤنا الحقيقيون: البهجة عابرة، في حين أن السعادة الحقيقية والسكينة ننالها بعد معاناة هول شديد مقترن بالألم في العادة وبعد أن ننظر لذواتنا في مرآة أرواحنا ونتفهّم ماتبتغيه تلك الأرواح في هذه الحياة.

my mentor:
dr vikram sarabhai



معلّمي المِفضال: الدكتور فيكرام سارابهاي

غالباً مانشهد الدور المؤثّر للمعلّمين الناصحين والموجّهين لنا في أطوار مختلفة من حياتنا، وفي طفولتي المبكرة كنت أتطلّع إلى والديّ ومعلميّ حتى دخل صديقي الأعزّ وزوج أختي أحمد جلال الدين عالمي الطفولي وراح يوجّه بوصلة حياتي في تلك السنوات الحاسمة التي شهدت إستحالتي من طفل صغير إلى رجل، وعندما بدأت أولى معالم مهنتي بالتشكّل كنت محظوظاً للغاية عندما دفعتني الأقدار للإنخراط في مدار رجل مثل الدكتور فيكرام سارابهاي(١٢).

١٢- فيكرام سارابهاي: فيزيائي هندي وُلِـدَ في أحمد آباد سنة ١٩١٩ وتوفي سنة ١٩٧١ بسبب الإرهاق نتيجة الضغط المفرط في جدول عمله. درس فيكرام العلوم الطبيعية في جامعة كامبريدج بكلية سانت جونز وتخرج منها سنة ١٩٤٠، عاد بعد ذلك إلى الهند ليعمل باحثاً في المعهد الهندي للعلوم في بنغالور تحت إشراف الفيزيائي الهندي رامان الحاصل على جائزة نوبل في الفيزياء. بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عاد فيكرام إلى كامبردج وحصل على درجة الدكتوراه. يُعدّ الدكتور سارابهاي أب البرنامج الفضائي الهندي كما يُعدّ المؤسس الحقيقي لمؤسسات ومعاهد علمية وإدارية كثيرة أثبت فيها الرجل براعة وكفاءة في حقول كثيرة مختلفة. يتحدّر سارابهاي من أسرة صناعية غنية ساهمت في دعم وتمويل حركة الإستقلال الهندية، وأسّس بعد عودته من كمبردج مختبر الأبحاث الفيزيائية عام ١٩٤٧ الذي كان الحاضنة التي تطوّر منها البرنامج الفضائي الهندي. يّذكر للدكتور سارابهاي – من بين إنجازاته الكثيرة – تأسيسه لمركز سارابهاي المجتمعي للعلوم بقصد إشاعة حب تعلّم الرياضيات والعلوم بين التلاميذ والمعلمين وعامة الناس. (المترجمة)

لطالما عُدّ الدكتور فيكرام سارابهاي واحداً من المفكرين والبنّائين العظام في الهند الحديثة باعتباره عالماً ومعلماً تربوياً وخالق مؤسسات وإنساناً رؤيوياً، وقد حاز إلى جانب ذكائه الحاد سمات القائد العلمي الفريدة من نوعها، وكان حظاً حسناً للهند أنه أختير لقيادة برنامج الهند الفضائي في مرحلة مابعد الإستقلال، وقد كُتب الكثير عن الرجل وإنجازاته الكثيرة: تأسيسه لمعهد البحوث العلمية، تدشينه لبرنامج الفضاء الهندي، رئاسته لمنظمة الطاقة الذرية الهندية، تأسيسه للكثير من المعاهد الصناعية والتعليمية من أمثال المعهد الهندي للإدارة IIM في أحمدآباد. بالنسبة لي وحيث أتيحت لي رؤية الرجل عن قرب فقد كنت أحسبه شخصية خارقة الإمكانيات والمواهب التي كانت مادة ترقى إلى مرتبة الأساطير التي جعلت منه يبدو بطلاً قومياً في نظر مهندس الصواريخ الناشئ الذي كنته أنا حينذاك، والحقّ أن الرجل كان أكبر بكثير حتى من صفة البطل الأسطوري التي رأيتها مجسّمة فيه!!

قابلت الدكتور سارابهاي للمرة الأولى عندما دُعيتُ لإجراء مقابلة لشغل وظيفة مهندس صواريخ في اللجنة الوطنية الهندية للبحث الفضائي INCOSPAR، وتلقّيتُ تلك الدعوة للمقابلة على غير توقّع مني بعد أن إطّلع البروفسور إم. جي. كي. مينون من معهد تاها للبحوث الأساسية TIFR على مشروعي المسمى (حوّامة ناندي) الذي أنجزته في بنغالور. لم تكن لديّ أية فكرة مسبقة بشأن تلك المقابلة أو بشأن من سيقوم بمهمة إجرائها، بل وحتى لم تكن لدي أية فكرة حول الحقول العلمية والهندسية المحببة لديّ والتي ستكون محوراً لتلك المقابلة، وقد ذهبت بالفعل إلى بومباي لإنجاز تلك المقابلة وأنا بعقل مفتوح على كل الإحتمالات و لم أرفع من سقف توقعاتي الطيبة البتة؛ فقد علّمتني الحياة

للتوّ أن أفضل طريقة للفوز بشيء ما هو أن لاأتشهّى الفوز بل أن أحافظ على هدوئي وأبقي عقلي مفتوحاً ومتأهباً للتحديات غير المتوقعة.

تمّت مقابلتي من قبل الدكتور سارابهاي والبروفسور مينون والسيد ساراف الذي كان السكرتير المساعد لهيئة الطاقة الذرية، وكان كل واحد من هؤلاء منجماً من المعرفة العلمية؛ ومع ذلك فقد كان الدفء وكرم الروح بادياً على نحو ملحوظ في المقابلة، وقد أسست تلك المقابلة شكل علاقتي المستقبلية مع الدكتور فيكرام سارابهاي الذي سبر أغوار فعالياتي الفكرية خلال تلك المقابلة و لم يركّز على محاولة معرفة المستوى الذي ترتقي إليه معرفتي العلمية فحسب بل جاهد لمعرفة ماالذي تتشكل منه شخصيتي الإنسانية وماالسقف الذي أتطلّع إليه كأهداف مؤشرة لي وماإمكانيات النموّ التي أراها ماثلة في دواخلي على الصعيدين المهني والإنساني. كان الدكتور سارابهاي شخصية أنيسة مشجعة خلال المقابلة وقد إستمع لي بكل حواسه وعلى نحوٍ جعلني أدرك غريزياً أن الرجل لم يكن ينهض بواجب تقليدي يتطلّب توظيف مهندس صواريخ فحسب بل كان يدقق في إمكانياتي المستقبلية باذلاً كلّ جهده ووقته واهتمامه معي، وفي سياق حياتي المهنية كلها كانت تلك المقابلة هي الفرصة الأولى أمامي التي حظيت فيها بمقابلة شخصية بمثل قامة الدكتور سارابهاي الذي رأيت فيه حضوراً سانحاً لإحتواء أفكاري وأحلامي في رؤيته العظمى بشأن برنامج الهند الفضائي.

وهكذا حصل وتسنّمت موقعاً في اللجنة الوطنية الهندية للبحث الفضائي وبدا الأمر لي كما لو أن حلماً لي قد تحقق، ومثّل ذلك الموقع إنعطافة مهنية كبرى في حياتي؛ إذ بعد أن مارست عملي هناك وترسّخت معرفتي بالمكان وشخوصه والعمليات البحثية الجارية فيه

أدركت كم كان عملي هنا يختلف جوهرياً عن عملي السابق: كان العمل هنا أكثر مدعاة للإسترخاء الذهني و لم تكن التوصيفات الوظيفية والتراتبية الموقعية لتحتلّ تلك الأهمية التي كانت عليها في الأماكن التي عملت فيها سابقاً.

بعد وقت قصير من عملي في المكان الجديد سمعت قصة مثيرة عن الكيفية التي تمكّن بها الدكتور فيكرام سارابهاي من إنشاء محطة ثومبا الإستوائية لإطلاق الصواريخ TERLS - تلك القصة التي لاأتعب أبداً من حكايتها لأنها تمثّل بالنسبة لي التعشيق المثالي الكامل بين العلم والروحانية اللذين كانا على الدوام القوتين التوأمين المسيّرتين لحياتي.

تقول القصة أن الوقت كان عام ١٩٦٢ عندما راح الدكتور فيكرام سارابهاي يبحث بجهد بالغ لإختيار موقع يصلح لإنشاء محطة بحوث فضائية، وبعد أن زار الرجل عدة مواقع وقع إختياره على منطقة ثومبا في كيرالا الواقعة جنوبيّ الهند لكونها واقعة قريباً من المنطقة الإستوائية وتبدو مثالية لدراسة طبقة الأيونوسفير الجوية، وعندما زار الدكتور سارابهاي منطقة ثومبا شاهد أن البيئة المحلية فيها تضمّ عدداً من القرى التي إعتاد ساكنوها على العيش وكسب رزقهم من مهنة صيد السمك، كما إحتوت المنطقة على كنيسة قديمة تدعى كنيسة مريم المجدلية وثمة دار للأسقف الراعي للكنيسة يقع قريباً منها. إلتقى الدكتور سارابهاي العديد من السياسيين والمسؤولين البيروقراطيين لغرض البدء بإقامة منشآت البحث الفضائي في المنطقة ولكنه لم يحصل على الموافقات المطلوبة، وقد طُلِب إليه آخر الأمر رؤية أسقف تريفاندروم: الأب المحترم الدكتور بيتر بيرنارد بيريرا، وقد إلتقى الإثنان بالفعل في يوم سبت وحينها إبتسم الأسقف في نهاية اللقاء وطلب إلى الدكتور

سارابهاي موافاته في يوم الأحد التالي في الكنيسة، وفي ذلك الأحد وبعد أن أتمّ الأسقف خدمته الكنسية توجّه بالحديث إلى الجمع الحاضر قائلاً:

أحبائي، يحضر بيننا اليوم عالِمٌ محترم ذائع الصيت يريد الحصول على ارض الكنيسة والدار الأسقفية لغرض إنشاء محطة أبحاث فضائية عليها. أولادي الأعزاء، يجهد العلم في البحث عن الحقيقة مستخدماً الأدلة والتجريب، وهو بطريقة ما يتشارك مع النزعة الروحانية في طلب البركات السماوية من خلال عمل الأفعال الخيّرة. أولادي: هل يمكن أن نمنح مسكن الرب من أجل مهمة علمية؟

في تلك اللحظة إرتفعت كلمة (آمين) من أفواه الحاضرين وراح صداها يتردّد مثل كلمة رنانة خرجت من حناجر جوقة كنسية، وعلى أساس ذلك إتّخذ الأب المحترم بيتر برنارد بيريرا قراره النبيل بإهداء بناية الكنيسة ودار الأسقفية الملحقة بها من أجل تأسيس المنظمة الهندية للبحوث الفضائية ISRO، وقد أقيمت على الأرض المحيطة بالكنيسة المنشآت التي ضمّت مركز التصاميم ومركز تجميع الصواريخ ومركز تصاميم المحركات الصاروخية، أمّا بيت الأسقف فقد صار مكاناً يجمع العلماء العاملين في المشروع، أما بناية الكنيسة ذاتها فقد تمت المحافظة عليها وأحيطت بكل الحب والرعاية من قبل الجميع تذكاراً للوفاء وتذكيراً للأجيال ببدايات المشروع الفضائي الهندي، ويضم الموقع في يومنا هذا بناية المتحف الفضائي الهندي، كما ساعد هذا الموقع على إنشاء مركز فيكرام سارابهاي الفضائي VSSC لاحقاً إضافة إلى عدة مراكز فضائية في كافة أنحاء البلاد.

عندما أفكّر في الحكاية السابقة أستطيع أن ألمح على الفور الطريقة التي يمكن بها للقادة العلميين والروحانيين أن يعملوا بتناغم مدهش من أجل أهداف نبيلة مشتركة، وفي وقت لاحق تم إنشاء كنيسة جديدة مع مدارس عدّة في تلك المنطقة وفي وقت إنشاء قياسي بالمعايير السائدة. ساعد كلّ من محطة ثومبا الإستوائية لإطلاق الصواريخ ومركز فيكرام سارابهاي الفضائي في منح الهند القدرة الكاملة على تصميم وتطوير وإنتاج نظم صاروخية ذات معايير عالمية مكّنت الهند من إطلاق المركبات الفضائية بكافة أنواعها ولمختلف المهمات العلمية والهندسية والتجارية، ومعها تطوّرت القدرات الهندية في إطـلاق الأقمار الصناعية الخاصة بالإتصالات والإستشعار عن بعد والتي ساهمت في تطوير الاتصالات والتنبؤ المناخي وتحديد أماكن المصادر المائية الجوفية في البلاد. لم يعُد الدكتور فيكرام سارابهاي بيننا اليوم مثلما غاب عنّا الأب المحترم الدكتور بيتر برنارد بيريرا، ولكنني أراهما مثل زهرتين تبرعمتا لتمنحا الآخرين قيمة ومعنى لحياتهم، وهذا هو بالضبط ماتعبّر عنه الكلمات التالية المأخوذة من الباغافاد غيتا:

تطلّع في الزهرة وهي تنشر بكرم عبيرها الفواح وعسلها الشهي، هي تمنح الجميع بركاتها المجانية النابعة من جوهر روحها المتسربلة بالحب، وعندما تنتهي من عملها ترتمي على الأرض في هدوء كامل. إجتهد بكل قدرتك المتاحة أن تكون مثل الزهرة التي تمنح من غير مقابل رغم عظمة ماتحوزه من صفات...

إن قصة نجاحنا في إنشاء محطة إطلاق الصواريخ الهندية تُعدُّ رسالة ملهمة لكلّ الأجيال القادمة؛ فهي مثال مدهش لما يمكن أن يصنعه التكامل بين العقول الشغوفة بالعلم والمعرفة والأهداف الوطنية، و لم

يسبق لي أن سمعت من قبل بمن يقبل التبرّع – وبطيب خاطر وأريحية كاملة – بكنيسة من أجل البحث العلمي؛ حصل هذا في الهند وحدها دون سائر العالم، وتلك رسالة جوهرية ينبغي نشرها وتداولها على أوسع الأصعدة: يمكن تحويل أفضل العناصر المكوّنة للدين إلى قوة روحية تُفضي إلى تشكيلٍ أكثر رقياً للمجتمع.

مع إستمراري في العمل بمنظمة البحوث الفضائية الهندية أصبحتُ أكثر تماساً مع الدكتور سارابهاي الذي كان يمضي آنذاك بقوة وعزيمة في تشكيل رؤيته لصورة البرنامج الفضائي الهندي من خلال إقامة المحطة الفضائية في ثومبا، ومن خلال تحقيق فكرة قدرة الهند الذاتية على بناء عربات الإطلاق الفضائية SLV إلى جانب إمتلاك منظومة الإقلاع الصاروخي الذاتي RATO التي تمكّن الطائرات العسكرية من الإقلاع السريع حتى في أكثر البيئات العدائية قسوة، ولطالما أصابتني الدهشة وانا أرى الطريقة المثيرة وغير المعهودة التي يعمل بها عقل الدكتور سارابهاي والأفكار الواضحة والقدرة التي يمتلكها للنظر بعيداً في الوقت الذي لم نكن فيه نحن بقية أعضاء الفريق العامل نمتلك أدنى فكرة عمّا كان شديد الوضوح بالنسبة إلى عقل الدكتور سارابهاي.

كانت السمات القيادية للدكتور سارابهاي قادرة على بعث الإلهام حتى في الأفراد المستجدين حديثي العمل معه من خلال قدرته على بعث الإحساس بالغاية النبيلة الكامنة وراء عملنا المشترك، وبحسب ماأتصور فإن الدكتور سارابهاي حاز على سمات أساسية جعلت منه قائداً عظيماً، ودعوني الآن أحكي عن تلك السمات واحدة تلو الأخرى:

السمة الأولى، كان الدكتور سارابهاي يمتلك دوماً القدرة على الإصغاء للآخرين: في المؤسسات الهندية غالباً مايكون العامل الأعظم المعيق للنمو والتطور هو تردّد هؤلاء الذين يتربعون على المراكز القيادية في الإصغاء لما يجول بخاطر مرؤوسيهم، وثمة قناعة راسخة في تلك المؤسسات أن جميع القرارات والأفكار يجب أن تتبع مساراً تراتبياً صارماً من القمة إلى القاعدة. إنّ الحد الفاصل بين القيادة والتسلّط حدّ واه للغاية، ولطالما أدهشنا الدكتور سارابهاي لكمّ الثقة التي منحها لكلّ واحد ممّن عملوا بمعيته؛ ففي بواكير عملنا في اللجنة الوطنية الهندية للبحث الفضائي كنّا ثُلّة من الشباب المهندسين المملوئين طموحاً وحماسة واندفاعاً للعمل، وقد عمل الدكتور سارابهاي على تهذيب تلك الروح الشابة المندفعة الجامحة وتسخيرها للعمل الطموح بعد أن مَنَحَنا رؤية جعلتنا نشعر أننا جزء من كلّ عظيم. سبقت زيارات الدكتور سارابهاي لموقع ثومبا فعاليات حامية من جانب كلّ واحد منّا مندفعين برغبتنا في جعله يرى شيئاً جديداً قد تمّ تطويره بصرف النظر عمّا يمكن أن يكونه ذلك الشيء: تصميم جديد أو طريقة تجميع صناعي جديدة أو ربما حتى طريقة إدارية جديدة في العمل. يمكن القول باختصار أن الدكتور سارابهاي كان يعدّنا لنكون قادة المستقبل كلٌّ بطريقته الخاصة.

السّمة الثانية التي أراها سمة مميزة تشمل جميع القادة الجيدين هي القدرة على التفكير بطريقة إبداعية: عندما قرّر الدكتور سارابهاي بناء مركبة الإطلاق الفضائية في وقت متزامن مع منظومة الإقلاع الصاروخي المُعزّز لم تكن تبدو ثمة رابطة مباشرة تجمع بين المشروعين ولكن مع الوقت تعلّمنا وبالبرهان المؤكد أنّ أفكاره وجهوده التي

بدت عشوائية وكيفية كانت مترابطة بعمق عظيم، وقد حدست هذا الأمر في وقت مبكر نسبياً ومنذ ذلك الحين وضعت في حسباني أن أبقي عقلي في حالة تركيزكامل ويقظة شاملة تحسباً لإمكانية أن تُناط بي أية مهمّات متطلبة وغير متوقعة يُطلَبُ مني إنجازها في مختبري. شكل الدكتور سارابهاي وفي المنظور الواسع الرؤية الهندية لما ينبغي أن يكون عليه شكل برنامج الفضاء الهندي كوحدة متكاملة تشتمل على تصميم وتصنيع الصواريخ والأقمار الصناعية وعربات الإطلاق الفضائية ومنشآت الإطلاق الصاروخية إلى جانب برنامج واسع آخر موازٍ للبرنامج الأول ويعمل على تطوير وقود الصواريخ ومنظومات الدفع ومواد الملاحة الجوية والفضائية ومنظومات وأجهزة التتبّع، وقد تم تجميع كل هذه المراكز البحثية والصناعية في مركز علوم وتقنيات الفضاء وفي مركز البحوث الفيزيائية في أحمدآباد. عندما نجح الدكتور سارابهاي في تشكيل صورة برنامج الصواريخ الهندي سُئِل – إلى جانب القيادات السياسية للبلد – عن أهمية مثل هذا المشروع للهند في الوقت الذي يقاتل فيه معظم الهنود شياطين الجوع والفقر في أغلب أجزاء البلاد، فكانت إجابة الرجل أنه يتشارك رؤية جواهر لال نهرو بأن الهند لايمكن أن تلعب دوراً ذا معنى في الشؤون العالمية ما لم تكن معتمدة إعتماداً ذاتياً على قدراتها الوطنية في كلّ جانب من جوانب الحياة؛ لذلك ينبغي على الهند أن تمتلك القدرة على تطبيق التقنيات الحديثة المتقدمة للتعامل مع معضلات الحياة الحقيقية التي تواجهها كل يوم، وعلى هذا الأساس لم يكن البرنامج الفضائي الهندي تحقيقاً لمحض رغبة في أن تكون الهند بلداً في عداد بلدان النخبة التي طوّرت برنامجاً وطنياً فضائياً، كما لم يكن مجرد رغبة في اللحاق بالبرامج الفضائية للبلدان الأخرى الأكثر تقدماً بل كان تعبيراً مباشراً عن الحاجة

لتطوير إمكانيات المناطق المحلية النائية في الهند وبخاصة في قطاعات الإتصالات والتنبؤ المناخي والتعليم.

السمة الثالثة التي شاهدتُها متجسدة في الدكتور سارابهاي والتي حاولت أنا شخصياً جعلها سمة من سمات طريقتي في العمل هي قدرته على تشكيل فرق العمل؛ إذ كانت لدى الدكتور سارابهاي موهبة خارقة لاتضاهى في إختيار الشخص المناسب للعمل المناسب له ثم كان يدعم ذلك الشخص (رجلاً كان أم إمرأة) بصورة كاملة حتى لو كان يفتقد الخبرة الضرورية، وكانت للرجل قدراته الذاتية الخاصة في رفع معنويات الأشخاص العاملين معه - تلك القدرات المطلوبة في القائد إلى أبعد الحدود وبخاصة في مجال دقيق مثل المجال الذي كنّا نعمل فيه حيث كانت مواجهة المعوقات والخلافات في وجهات النظر وحالات الفشل أمراً محتماً، وحينها كان الدكتور سارابهاي قادراً على إقناعنا أنّ أكثر السيناريوهات ظلمةً التي توقعناها لم تكن بذلك السواد الذي ظننّاه فيها من قبلُ، وكان دوماً يكيل المديح في معرض الإطراء علينا حتى لو لم ننجز العمل المنوط بنا بالكامل متى مااقتنع أن سبب التأخير له مبرّراته المستحقة، و لم يتوانَ الرجل يوماً عن إستخدام الفكاهة لتلطيف أجواء العمل المشحونة دوماً في حقل علمي مثل الحقل الذي نعمل فيه؛ الأمر الذي ساعد الرجل في بناء فرق العمل والمؤسسات التي لازالت مخلصة للدكتور سارابهاي ورؤيته القائمة على أساس أن يشعر كل فرد أن بإمكانه المساهمة بشيء ما وأنّ مساهمته تلك ستلقى التقدير والإعتراف اللائقيْن.

أما السمة الأخيرة بين السمات الأعظم للدكتور سارابهاي فهي قدرته على النظر بعيداً وراء الفشل ومن ثمّ تجاوزه: أتذكر في واحدة

من زيارات الدكتور سارابهاي إلى مركز ثومبا حيث كنّا قد أنجزنا عرضاً لإحدى الآليات العاملة في مشروع عربة الإطلاق الفضائية الذي كنا نعمل عليه حينذاك، وكانت الخطة أن تعمل تلك الآلية متى ماضغط الدكتور سارابهاي على مفتاح كهربائي متصل بدائرة توقيت، ولكن عندما ضغط الرجل على المفتاح لم يحصل شيء!! وهنا كنت في حالة صدمة كاملة أنا وزميلي في العمل براموود كيل الذي صمّم وجمّع عناصر دائرة الموقّت، وقد أدركنا منذ البدء أن المشكلة تكمن في دائرة الموقت لذا نزعنا الدائرة عن الآلية وطلبنا من الدكتور سارابهاي أن يعمل على تشغيلها مباشرة من غير وجود المفتاح ودائـرة الموقّت، وهنا سرعان ماعملت الآلية بنجاح كبير كما كان مفترضاً لها أن تعمل، وحينها شدّ الدكتور سارابهاي على أيدينا مهنّئاً بنجاح عملنا ولكننا لمحنا نظرة تفكير عميق على وجهه وهو يغادرنا وعبارات التوديع تنطلق من فمه.

في مساء اليوم ذاته طُلِب إليّ ملاقاة الدكتور سارابهاي في فندق قصر كوفالام في تريفاندروم، وسيطرت عليّ هواجس غير مريحة لي وأنا أشق طريقي إلى الفندق، وعندما وصلت قابلني الرجل بما عُرِف عنه دوماً من دفء وتحدّث معي بشأن محطة إطلاق الصواريخ، ثم عرّج فجأة على الحادثة التي حصلت في الصباح وهنا هيّأتُ نفسي لتلقّي أشد عبارات اللوم والتقريع، ولكن على العكس من توقّعاتي راح الدكتور سارابهاي ينقّب في موضوعات أكثر عمقاً: هل أنّ العمل لم يكن يستثير حماستنا بقدر كاف؟ أم أنه لم يمثل مايكفي من التحدّيات الملائمة لقدراتنا؟ وبعد أن تبادلنا الحديث بشأن معضلة الصباح توصلنا إلى سبب مقنع لما حصل، وكانت النتيجة أن بقي الدكتور سارابهاي معي حتى وقت متأخر من تلك الليلة بعد أن قرّر إعادة توزيع الأدوار لفرق العمل كما قرّر تأسيس قسم جديد في المشروع – قسم الهندسة الصاروخية.

الأخطاء وحالات الفشل - وكما نوّهتُ في فصل سابق - هي جزء حتمي في أي مشروع وبخاصة في مشاريع مثل مشاريعنا الفضائية حيث تعمل فرق عمل مختلفة على منظومات عدّة متمايزة عن بعضها وحيث تكون مجموعات مختلفة مسؤولة عن تطوير أطوار مختلفة من المشروع ذاته؛ الأمر الذي قد يؤدي معه مجرد خطأ صغير في طور ما إلى تعطيل المروع بكامله وجعل تعب سنوات عدة من العمل المضني يذهب هباء، ولكن الدكتور سارابهاي لطالما إستخدم مثل هذه الأخطاء كمبررات تفتح الأبواب أمام إبتكارات جديدة تقود بدورها لتطوير منظومات جديدة، وقد حفّز فينا الرجل القدرة على التدقيق في تلك الأخطاء الصغيرة وقراءة مايترتّب عليها من تطويرات واجبة، وقد سمح الرجل بالأخطاء ولكنه عمل في الوقت ذاته على جعلنا قادرين على التحكّم بتلك الأخطاء وبطريقة تسمح لنا بتحجيم التبعات السلبية لتلك الأخطاء بدلاً من جعل مخاوفنا بشأن إقتراف تلك الأخطاء - وبالتالي الفشل - هي التي تتحكّم فينا وتمسك بزمام قيادة المشروع بأكمله.

إن المكانة التي تحوزها منظمة البحث الفضائي الهندي بين نظيراتها في البلدان المهتمة بارتياد الفضاء تعدُّ فريدة من نوعها للغاية، وقد ساهم هذا البرنامج في تطوير أقمار صناعية ذات معايير عالمية وكذلك آليات إطلاق خاصة بالصواريخ والأقمار الصناعية، وقد قدّم هذا البرنامج خدمات لاتقدّر بثمن للبلاد في ميادين البحث العلمي والإبتكار والتعليم ووسائل الاتصالات، ومن المهم الإشارة هنا إلى التابع تشاندرايان ١ الذي أرسِلَ للدوران حول القمر كما سيُرسَل عمّا قريب

مجسّ فضائي لاستكشاف أجواء المريخ[١٣]، كل هذه الإنجازات هي بعض ثمار البذور التي زرعها الدكتور فيكرام سارابهاي والتي حرص على رعايتها من بعده البروفسور ساتيش داوان والرؤساء اللاحقون لتلك المنظمة الهندية الرائدة.

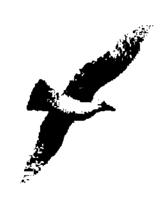
كانت علاقتي بالدكتور سارابهاي علاقة فكرية عميقة إلى جانب كونها متخمة بالمشاعر الجياشة، ولطالما أبدى الرجل كل حين إيمانه بي ووضع ثقته الكاملة في قدرتي على قيادة الفرق البحثية القادرة على تصميم وتطوير الآليات القادرة على دفع الهند في مسارها لتكون أمة معتمدة بالكامل على قدراتها الذاتية الخالصة وبخاصة في ميداني العلم والدفاع الوطني. أخذ الدكتور سارابهاي بيديّ عندما كنت مهندساً شاباً قليل الخبرة جالساً أمامه – في تلك المقابلة التي حكيت عنها – وأنا أجاهد في الجواب على أسئلته بكل نزاهة ووضوح، وضمّني الرجل تحت جناحيه وشاركني حلمه الشخصي في بناء الصواريخ والمقذوفات، ولطالما وقف الرجل إلى جانبي في أوقات الأزمات والشك، وفي الفشل والنجاح، موجّهاً لي ومشيراً لجادة الطريق الصائب عندما يكون هذا ضرورياً وبخاصة في الأوقات التي أكون فيها مشوّشاً بين خيارات كثيرة. كان الدكتور سارابهاي عملاقاً عظيماً بين كل الذين عرفتهم وأحسب نفسي محظوظاً كبيراً إذ أتيحت لي الفرصة السانحة للنمو والتطوّر في ظلّ رعايته.

١٣- تحققت هذه المهمة في يوم ٥ نوفمبر (تشرين ثان) ٢٠١٣ وبكلفة لاتتجاوز السبعين مليون دولار؛ تلك الكلفة البسيطة بالمقارنة مع البرامج الفضائية المماثلة، ويعدّ ذلك سبقاً ونجاحاً علمياً وتقنياً مرموقاً للبرنامج الفضائي الهندي على المستوى العالمي. (المترجمة)

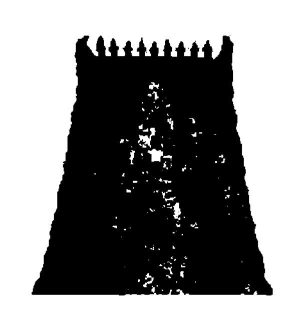
جاءت وفاة الدكتور سارابهاي كضربة قاسية لي وبخاصة لكونها كانت أمراً غير متوقّع تماماً: إتصلت بالدكتور سارابهاي من دلهي في ديسمبر (كانون أول) ١٩٧١ وأوجزته علماً بآخر أخبار إجتماع للمقذوفات كنت حضرته مؤخراً هناك. كان الرجل آنذاك في ثومبا وطلب إليّ الإلتقاء به في مطار تريفاندروم بعد أن تهبط طائرتي المغادرة من دلهي هناك لأنه كان يعتزم الذهاب إلى بومباي، ولكن للأسف لم يتحقق لقائي معه على أرض المطار؛ إذ بعد بضع ساعات من هبوط طائرتي في مطار تريفاندروم تناهى إلى سمعي الخبر الحزين حول وفاة الدكتور سارابهاي بسبب سكتة قلبية مفاجئة، وعلمت لاحقاً أنه توفّى بعد ساعة من حوارنا على الهاتف، وهنا واجهنا جميعاً الحقيقة المحزنة: الرجل الذي لطالما رعى العلماء والمهندسين وأخذ بأياديهم، والذي كان مقدراً له قيادة العديد من المشاريع العلمية المهمة والواعدة في البلاد، والذي كان هو ذاته عالماً وقائداً عظيماً، غاب إلى الأبد و لم يعُد أمامنا مَنْ نعود إليه لحلّ معضلاتنا، ولكنه قبل أن يغادرنا إلى الأبد كان قد جهّزنا بالمعرفة والثقة والبصيرة اللازمة لمواجهة التحديات بكافة صنوفها وألوانها، وأرى أن الإجلال الواجب لهذا الرجل العظيم يكمن في إدراك كلّ منا لقدراته الحقيقية الكامنة في أعماقه والتي كانت دوماً الشغل الشاغل للدكتور سارابهاي في لقائه الأول مع كلّ منّا نحن الذين عملنا بمعيته طوال سنوات عديدة.

ربما صار نمطاً ثابتاً في حياتي أن يغيب عن الحياة هؤلاء الأعزاء الأكثر قرباً لي على نحو مفاجئ ومن غير تحذير مسبّق. ماالذي تعلّمته من وراء هذا الأمر؟ بالنسبة لكلّ شخص أفقده صرت أجد نوعاً جديداً من الحزن أغمر نفسي به وفي الوقت ذاته أحاول إستحضار شيء من

ماهية ذلك الشخص الغائب عن أنظارنا في وجودي الشخصي - نوع من المحبة غير المشروطة أو الإحسان أو التقوى، وفي حالة الدكتور سارابهاي ربما كان ذلك الشيء هو قدرته على رؤية الطريق قدماً ثم المضي بعزيمة جبارة في التخطيط والبناء والخلق، وإذا ماكنت قد أنجزت بنجاح جزء - ولو محض جزء صغير - ممّا عمل عليه الدكتور سارابهاي من خلال أفعالي والأدوار التي أنيطت بي بثقة، فإنني أعِدّ ذلك إنجازاً ضئيلاً أزاء الأهداف العظيمة التي سعى لتحقيقها هذا الرؤيوي الهندي العظيم.



a life in science



حياة عشتها في العلم

بعد أن أجرت الهند تجربتها النووية الثانية في بوخران عام ١٩٩٨ والتي ساهمت بدورٍ فيها، راح الناس يطلقون عليّ كُنياتٍ مختلفة، وظلت كنية (رجل الصواريخ) هي الصفة الأحبّ إلى قلبي والتي لازمتني سنواتٍ طويلة أثناء رئاستي ومابعد تلك الفترة أيضاً، وإنّ ممّا يبعث البهجة في روحي إلى مديات بعيدة هو سماعي بذلك التوصيف يُطلق عليّ لأنه يوحي ببطل من أفلام الحركة المخصّصة للأطفال أكثر بكثير ممّا يشير إلى رجل العلم الذي حسبتُني أمثّله، ولكنه برغم ذلك يحتوي على كلّ مظاهر الحب والإحترام التي أغدقها عليّ الكثيرون من أبناء بلدي، أمّا بقدر مايختصّ الأمر بي فأرى أن هذا التوصيف يشير بطريقة رمزية إلى ذروة الخلاصة الشاملة لرحلتي في مملكة العلم والصواريخ والهندسة بعامة؛ تلك الرحلة التي تمتدّ عميقاً إلى سنوات بعيدة - بعيدة إلى حدّ أنني عندما أفكّر فيها اليوم أتساءل بدهشة: هل أنّ ماحصل لي في هذه الرحلة هو أمر حقيقي بكل تفاصيله أم أنه ليس بأكثر من محض حكاية قرأتها في كتاب يوماً ما وفي مكان ما؟!! ولكن من الطبيعي القول أنّ كلّ ماساهم في جعلي أسلك مسار العلم هو أمر تحقق بالكامل على أرض الواقع، وأن إستعادتي لذكرى تلك الرحلة الآن يشبه السباحة إلى أعالي النهر بعكس التيار من الساحل إلى

مركز الدوّامة النهرية حيث كنت أكافح أكثر فأكثر وأنا لم أزل صبياً بعدُ لإيجاد سبيلي في هذه الحياة.

إبتدأت رحلة تعليمي الحقيقية من أوجه عدة بعد أن غادرت راميسوارام طلباً للدراسة في المدرسة الثانوية العليا في راماناثابورام، وكانت تلك التجربة - كما سبق لي أن كتبت في أجزاء أخرى من هذه الرحلة - هي الفرصة الأولى المتاحة لي للخروج بعيداً عن شرنقة الحماية التي وفّرها لي العيش في راميسوارام حيث كنت أحظى برعاية أمي وكان كل شيء فيها معتاداً لي على خلاف الحال في المدرسة الثانوية التي بدوتُ فيها صبياً صغيراً خجولاً للغاية ويخشى من الحديث مع الآخرين. إنّ ماحصل لي في مدرسة شوارتز الثانوية العليا هو أن عقلي لَمَسَته لأول مرة النار المتوهجة لمشكاة العلم وأعاجيبه - كما أحجياته -، وتمّ توضيح الأمور لي على نحو جعل عقلي ينال جرعة عظيمة من الإستنارة؛ فقد كان ثمة في تلك المدرسة الرائعة أستاذ يدعى الأب إيادوراي سولومون الذي حرص على إدامة علاقة من الإنفتاح والثقة معي على الدوام، ومن جانبي وجدت في ذلك الأب المحترم نوعاً من الدليل الهادي الذي كنت في مسيس الحاجة إليه ليهديني سبيلي قدماً إلى الأمام.

لطالما فُتِنتُ بالطيور وأنا أراها تطير في السماء، وكان من بواعث متعتي العميقة أن أقضي الساعات بلا حساب محدّقاً في أنماط تحليق الطيور ومساراتها في الفضاءات العالية الممتدة فوقي؛ وعلى هذا الأساس تملّكني عشق الطيور واستولت عليّ رغبة جامحة في الطيران ومشاركة الطيور في تحليقها البعيد منذ أن كنت صبياً يافعاً. أذكر أحد الأيام عندما كنّا ندرس فيزياء الطيران: إصطحب الأب إيادوراي سولومون بعضاً

من الطلبة إلى ساحل البحر وأشار بيده إلى الطيور المحلقة في الأعالي ونحن نفترش رمال الساحل وصوت زمجرة موجات البحر الصاخبة تدوّي في آذاننا بين حين وآخر، في حين راحت أصوات الرافعات الثقيلة ونوارس البحر ترتفع شيئاً فشيئاً وعلى نحو مستمر حولنا، وهنا راح الأب سولومون يضع اقدامنا على أولى دروب الديناميكا الهوائية وتصاميم الملاحة الجوية والدوامات الهوائية وفكرة الدفع النفاث، وبدأت مغاليق تلك الحقول الهندسية الرائعة تنفتح شيئاً فشيئاً أمامنا. كنت أنا واحداً من جملة هؤلاء الطلبة الذين كانوا بعمر الخامسة عشرة، وبالنسبة لي كان درس الأب سولومون الذي تعلّمناه عند ساحل البحر التجربة العلمية الأهم في سنوات حياتي اللاحقة جميعها؛ إذ أنّ ماكان يملأني دهشة وانسحاراً بالعلم بات منذ ذلك الحين أمراً يمكن تفسيره وجعله حائزاً مايكفي من الوضوح، وبدا الأمر لي آنذاك كما لو أنني كنت أرى الأمور من وراء نافذة زجاجية مضبّبة ثم حصل فجأة ان كُسِرت النافذة وأطيح بزجاجها بعيداً وغدوت قادراً على التمعّن في العالم بعيون مفتوحة متعطّشة لطلب المزيد من العلم والمعرفة.

بينما كنت أجتهد بأقصى طاقاتي في دروسي المدرسية في الثانوية العليا ثم في كلية القديس جوزيف في تيروتشيراباللي، كان ثمة المزيد من اللحظات المدهشة تنتظرني، وقد أدركت منذ وقت مبكر في دراستي أنّ من الضرورة القصوى إبقاء عقلي وأذنيّ في حالة دائمة من الإستعداد لتلقّي المستجدّات، وإبقاء دماغي حادّ المقدرة والبصيرة وبطريقة تتيح لي التركيز على ماأبتغي فعله، وقبل كل ذلك كان لابد لي من الايمان الصارم بأن ليس ثمة شيء ما عصيّ على قدرتي في الفهم والإستيعاب في كل مرة يعترض ذلك الشيء طريقي. عندما درسنا للمرة الأولى في كلية القديس

جوزيف مفهوم الفيزياء دون الذرية Subatomic Physics على يدي الأستاذين تشينادوراي وكريشناموترتي بدأتُ بالتفكير لأول مرة بالعالم المادي غير المنظور لنا وبالإنحلال الذي نشهده كل يوم حولنا، وبدأت أتعلم المزيد عن أنصاف أعمار المواد الإشعاعية والإنحلال الإشعاعي للمواد المشعة، وفجأة بدا لي العالم شيئاً مختلفاً للغاية عن تلك اليقينيات الراسخة التي كنّا نظن أنه تكوّن منها في بواكير عهدنا بالعلم، ومن هنا تشكّلت أيضاً أولى نظراتي حول الثنائيات الملازمة للعلم والروحانية: هل أن العلم يختلف بصورة جوهرية عن العالم الروحاني وعلى النحو الصارخ الذي نشهده في حياتنا اليومية السائدة؟ وإذا كانت الجسيمات على المستوى دون الذري غير مستقرة وتعاني تفكّكاً مستمراً، فكم تبعد تلك الصورة غير المعتادة للمادة عن كافة أشكال الحياة الإنسانية؟ يبتغي العلم توفير إجابات لكل الظواهر الطبيعية بينما تساعدنا الروحانية على معرفة مكانتنا في نسيج المخطط الشامل للكون، وفي الوقت الذي يعمل المرء على فهم الكون من خلال العلم ووسائله المتاحة: الرياضيات والصيغ القانونية الرياضياتية الصارمة، فإنّ المرء يتوق في الوقت ذاته إلى اللجوء للروحانية التي تفتح عقل المرء وقلبه على تجارب غير معهودة له كما تمكّنه من تحسّس طريقه الخاص في هذه الحياة وبإمكاناته الذاتية الخالصة، وهكذا بدا لي - ولو على نحوٍ غامض بعض الشيء - أن الرابطة بين ماسيكون عالمي القادم وبين العالم الذي عاشه أبي ليست بذلك الإختلاف والتباعد الذي حسبته أول الأمر.

بعد تخرّجي من كلية القديس جوزيف في تيروتشيراباللي إلتحقت بدراسة هندسة الملاحة الجوية في معهد مدراس التقني MIT، وهناك أثارت رؤيتي لطائرتين خارجتين عن الخدمة الرغبة وأشعلت فيّ التوق

لدراسة كلّ مايتعلّق بالعالم المدهش والساحر للطيران البشري، وقد إقتربت من تينك الطائرتين مثلما تحوم الفراشة حول اللهب وأدركت أن ليس ثمة من مهنة أمامي سوى تلك المهن التي أتاحت تصنيع تلك الأشياء الطائرة التي صنعتها أيادي وعقول البشر. في معهد مدراس التقني كان ثمة ثلاثة من الأساتذة الذين ساهموا في تشكيل رغبتي وتحويلها من محض أمنية إلى إمكانية قابلة للتحقق على أرض الواقع، وكان هؤلاء الثلاثة هم كلٌ من: البروفسور سبوندر النمساوي الجنسية الذي درّسني الإيروديناميكا الهوائية التقنية، البروفسور كي. أي. باندالاي الذي درّسني تحليل وتصميم المنشآت الهوائية، والبروفسور ناراسينغا راو الذي درّسني الإيروديناميكا النظرية – هؤلاء الأساتذة الثلاثة أبانوا لي كم كان حقل الملاحة الهوائية مدهشاً وساحراً: فما نراه حركة منسابة وجرياناً ناعماً يتمّ تفكيكه إلى عناصر أولية توضّح (كيف) و(لماذا) تحلّق الأشياء في الهواء، ولطالما قادني ولعي بهذا الحقل إلى نسيان حاجاتي الشخصية وأنا أقضي ساعات وساعات في إستكشاف العوالم الساحرة لديناميكا الموائع، وأنماط الحركة، والموجات الصدمية، الخ من الموضوعات، وفي الوقت ذاته فإن الخواص الإنشائية للطائرات صارت أكثر وضوحاً لي، وقد درست بشغف لايكاد ينتهي كل مايتعلّق بالطائرات الثنائية المقاعد والطائرات الأحادية المقاعد والطائرات عديمة الذيل وكثير من الفروع الدراسية في حقل الملاحة الهوائية.

كان ثمة الكثير من اللحظات المدهشة التي إختبرتُها أثناء دراستي في معهد مدراس التقني عندما وجدت نفسي أستكشف بِنَهَم بيّن عالم العلم، وقد حدث هذا الأمر في مفصل حسّاس من تأريخ البلاد حيث كان يتمّ دوماً وعلى أعلى المستويات – إبتداء من رئيس الوزراء جواهر

لال نهرو - التأكيد على الأهمية العظيمة لإشاعة المزاج العلمي وتنمية حبّ المعرفة، وقد لاحظت آنذاك في كل مكان حولي - وبخاصة في المعاهد التعليمية مثل معهدنا الذي كنت أدرس فيه - أننا كنّا نُدفَعُ دفعاً لتوظيف أنماط التفكير العلمية الجديدة وولوج المناخ العلمي المستجدّ بقوة ومغادرة الأساليب المتقادمة، وكنا نسمع دوماً أنّ من الأفضل لنا توظيف الطرق العلمية في طلب المعرفة، والحقّ أنني وجدت الأمر شاقاً عليّ أنا الذي قضيت الشطر الأكبر من طفولتي وسط البيئة الدينية في راميسوارام، ووجدتني لاحقاً وعلى غير المتوقّع أشكّلُ مفهومي الخاص بشأن الوحدة الجوهرية بين العلم والروحانية مستخدماً ومضاتي الطفولية المبكرة في تشييد هذا المفهوم: لم يكن بوسعي القبول بأنّ مدركاتنا الحسية هي المصدر الأوحد لبلوغ المعرفة والحقيقة، وقد نشأت مع درس أساسي يقول أن الواقع الحقيقي يكمن في مكان ما بعيداً عن العالم المادي الذي نراه ونتعامل معه - في مملكة العالم الروحانيّ، وأن المعرفة الحقيقية تكمن في إستكشاف أغوار الذات الجوّانية، أمّا خلال دراستي العليا فقد أصبحت وعلى نحو تدريجيّ جزء من عالم آخر يقوم على البراهين والتجارب والصياغات الرياضياتية المحكمة، ولكن شيئاً فشيئاً تعلّمتُ كيف أتبيّن موضع قدمي وسط ذينك العالمين على الرغم من أنّ جهدي الفائق إستلزم سنوات عدّة لكي يتبلور في حالة راسخة.

غادرت آخر الأمر بوابات معهد مدراس التقني وأنا مهندس مُعتَمَدٌ، ولكن كان ثمة الكثير أمامي لأتعلّمه بشأن عالم الصواريخ والمقذوفات اللذين سيكونان المادة الرئيسية لما سيغدو مهنتي الأساسية في المستقبل، وكلّ ماكنت أعرفه بعد تخرّجي أنّ عالَماً واسع الآفاق ينتظرني بأبواب

مُشرعة لأستكشف آفاقه المدهشة وأنا عاقد العزم على بلوغ أقصى المتاح أمامي للإرتقاء عالياً وبعيداً إلى تخوم لم يطرقها أحد من قبل.

لو سُئِلتُ اليوم بشأن الدروس العظمى التي تعلّمتها خلال عملي (وبخاصة أثناء تطوير مركبة الإطلاق الفضائية) فسأقول على الفور إنها ثلاثة دروس عظيمة الأهمية: الدرس الأول هو الرؤيا الكاشفة التي أتاحها لي عملي في إدراك الأهمية الحاسمة التي ينهض بها العلم والتقنية والبحث والهندسة في الإرتقاء بالبلدان ودفعها في مسار النهوض والتنمية المستديمة، وقد جعلني عملي أدرك أن العلم مغامرة مفتوحة النهايات وذو طبيعة إستقصائية مدهشة؛ فالمرء ينطلق في مسعاه العلمي طلباً للبحث عن إجابات وهو لايعرف تماماً ماالذي سينتهي إليه مسعاه، وهو يشبه في ذلك مسافراً خرج في رحلة لم يطرقها من قبلُ، ويمكن القول في هذا الشأن أن العلم رحلة عنيدة بحثاً عن الممكن وعن كلّ ماسيغدو – يوماً ما – ممكناً وقابلاً للشرح والفهم. العلم متعة وبهجة شغوفة لاتحدّهما تخوم، في حين أن النمو والإرتقاء العلمي، من جهة أخرى، دائرة مغلقة؛ فهما كفيلان – ويفترَض فيهما – وضع اليد على آخر ماأنجزه العلماء ودفعه في مسارات أبعد بقصد وضعه موضع التطبيق الفعلي، ومن هنا فإن الأخطاء والإستكشاف المميزين للممارسة العلمية غير مقبولين في هذا الطور، وهذا بالضبط هو مايميّز عمل العلماء عن عمل المهندسين؛ إذ بينما يرينا العلماء الطريق لإنجاز الأهداف المرسومة عبر كل الإمكانيات المتاحة والممكنة، فإن المهندسين يعملون على الإلتزام بسلوك الطريق الموصل للنتائج التي إنتهى لها العلماء بالإعتماد على جداول زمنية وموارد مادية محسوبة بصرامة. إن كل المشاريع الهندسية العظيمة (مثل تصميم وبناء منظومة الإطلاق

الفضائية) إذا ماأريد لها النجاح فينبغي لكل العناصر المكوّنة لها أن تعمل بسلاسة وتناغم كاملين مثلما تفعل الآلات في الأوركسترا.

الدرس الثاني الذي تعلّمته من عملي كان بشأن طبيعة الإلتزام؛ إذ قلّما فكّرت - في تلك السنين الخوالي من عملي - بشيء آخر ماخلا عملي المنوط بي إنجازه، وقد وضع آخرون مثلي جلّ إهتمامهم وشغفهم في عملهم، ولكن تبقى الكلمات الحكيمة الأعظم فائدة بشأن عملي هي تلك التي قالها لي (فيرنر فون براون Werner von Braun). كان فون براون عملاقاً في ميدان تطوير الصواريخ، وإليه يعود الفضل الأكبر في تطوير صواريخ V-2 التي دمّرت أجزاء كبيرة من لندن أثناء الحرب العالمية الثانية، وقد ضمّه الأمريكان بعد نهاية تلك الحرب الفظيعة لبرنامجهم الصاروخي في وكالة ناسا الفضائية حيث تمكّن من تطوير صاروخ (جوبيتر Jupiter) الذي عُد الصاروخ الأبعد مدى في وقته. كان فون براون موهوباً في ميادين كثيرة؛ فقد كان عالماً، ومهندساً، ومُصمّماً، ومديراً إدارياً، ومسؤولاً تقنياً، وهو يعدُّ الأب الحقيقي لعلم الصواريخ بلا منازع، وقد كان لي الشرف العظيم في مرافقته جواً أثناء زيارته للهند، ولاتزال كلماته لي بشأن عملنا محفورة في عقلي: «ينبغي أن تتذكر دوماً أننا لانؤسس إنجازاتنا على النجاحات فحسب بل على الإخفاقات أيضاً»، وبشأن العمل المضني والتكريس الكامل المحتّمين واللذين يتطلّبهما التطوير في الصناعة الصاروخية فقد أخبرني فون براون «العمل المضني والكدح الشاق ليسا كافيين في علم الصواريخ؛ فهذا الحقل ليس كمثل إحدى الرياضات التي ستقودك لنيل أوسمة الشرف والإستحقاق من خلال الجهد المضني فحسب. في علم الصواريخ لايكفي أن تمتلك هدفاً تعمل عليه وتسعى لبلوغه بالعمل

الشاق، بل ينبغي أيضاً أن تمتلك إستراتيجيات تمكّنك من بلوغ هدفك بأقصى سرعة ممكنة. لاتجعل من علم الصواريخ مهنتك أو وسيلتك في كسب عيشك، بل إجعلها بمقام دينك ومهمّتك الأعظم في هذه الحياة». علّمتني كلمات فون براون الكثير، وكان من بين أهم ماعلّمتني إياه هو معرفة كيفية السيطرة على الضغوط المتصلة بعملي، وكذلك كيفية التعامل مع الصعوبات المتوقعة من خلال جعل عقلي يرنو دوماً صوب النتائج العظيمة المتوقعة من هذا العمل، ولستُ في حاجة اليوم للتشديد على أهمية الصعوبات التي تحيط بكل عمل تترتّب عليه نتائج عظيمة؛ إذ وحدها تلك الصعوبات هي مايجعلنا نتذوّق طعم البهجة العميقة بعد بلوغ النجاح النهائي لأي مسعى ذي طبيعة ملحمية.

أما الدرس الثالث الذي تعلّمته فينبثق تلقائياً ممّا تعلّمته من الدرسين السابقين خلال عملي على مشروع تطوير منظومة القذف الصاروخية – أعني بذلك القدرة على التعامل مع الإخفاقات والتعلم المثمر منها، وأرى اليوم أن هذا الدرس ربما كان الدرس الأهم الذي تعلمته من المشروع بأكمله: الحس المفعم بالإنسانية وكرم الروح والسلوك المتفهم مع الآخرين لايمكن أن يخذلك أبداً، وإن القدرة على أن نكون رقيقي القلب ومتسامحين وحائزين لروح المغفرة والتسامح ومتعاطفين مع مشاعر الآخرين هي في نهاية المطاف كل مانحتاجه حقاً في كل مانسعى إليه سواء أكان ذلك المسعى تطوير منظومة صاروخية أو تعليم الصغار في المدرسة، وسواء كنّا مدراء تنفيذيين بأعلى المناصب الإدارية أو آباء نتكفّل تربية أبنائنا وتنشئتهم في هذه الأزمان العسيرة التي تكتنف عالمنا المضطرب.

ولكن لماذا أراني في حاجة لسرد مثل هذه الحكايات بشأن عملي؟

ربما لأنني أشعر أن المدى الواسع من الموضوعات التي تعاملت معها خلال عملي إلى جانب الطيف الواسع من الناس الذين خبرتهم قد جعلني أتحسس مباشرة - وعلى وجه التقريب - كل وجه من أوجه الحياة ممّا يمكن أن يكون محيّراً أو باعثاً على الدهشة، وأحسب أنني قد تعاملت مع كل هذه الوجوه في الحياة بطريقتي الخاصة، وإنني إذ أعيد سرد حكاياتي فربما يكون في سردي هذا فائدة تساعد الآخرين على التعامل بطريقتهم مع ظروف الحياة وتفهم تقلباتها متى ماخبروا ظروفاً شبيهة بظروفي، وحينها يمكن لي أن أطمئن إلى القناعة بأنّ حياتي لم أعشها وحدي بل تشاركتها مع حيوات كثيرة يصعب إحصاؤها.

أنا نبعٌ في هذه الأرض العظيمة
متطلعاً بأنظاري إلى الملايين من الفتيان والفتيات على أديمها
ليرتشفوا مني
رحيق المهمة الإلهية السامية التي لاتفنى
لينشروا مجد الله في كل مكان
مثلما تفعل شربة الماء المأخوذة من جوف بئر وسط الصحراء

miles to go



ثمة أميالٌ للذهاب أبعد!

الحكايات التي سردتُها فيما سبق تضمُّ لمحات قصيرة من حياتي - تلك اللمحات التي تلقي الضوء على برهاتٍ وشخوصٍ وأزمان وأمكنة تركت أعمق الأثـر في حياتي، ومن الطّبيعي القولَ أنني لست في حاجة لتأكيد حقيقة أنّ المرء متى ماشرع في إستعادة واستذكار تلك البرهات عميقة التأثير في حياته - وبخاصة لمن كانت حياته مزدحمة بالإنشغالات والمهام مثلي - فستفوته حتماً المئات من الحكايات المؤثرة التي يمكن أن تُحكى للآخرين، وأحسب أن سنوات عملي مستشاراً علمياً للحكومة الهندية عندما أجرت الهند تجربتها النووية الثانية، إلى جانب سنوات تقاعدي وتكريسي كل جهودي للتعليم بعد سنوات خدمتي الحكومية، ثم سنوات رئاستي للهند - أحسب أنّ كل هذه السنوات تضمّ حكايات كثيرة عن التحديات وإمكانيات التعلّم التي يمكن أن يحظى بها المرء في حياته.

بعد أن سُلّطت عليّ أكثر فأكثر أضواء الإعـلام الوهّاجة عقب الإطلاق الناجح للصاروخ (أغني[١٤] Agni) وماتبعه من إنجازات مميزة

١٤- أغني Agni: مفردة هندوسية تعني الحريق أو النار المشتعلة، وهي في الأصل إشارة لإله النار تبعاً لمعتقدات الفلسفة الفيدية التي يحتويها كتاب الباغافاد غيتا. (المترجمة)

كان لزاماً عليّ أن أستعيد الدروس الثمينة التي تعلّمتها في حياتي المبكرة بغية توظيفها للتعامل مع كل أنماط القرارات والألغاز التي توجّب عليّ التعامل معها حينذاك، وشهدت أسبقيّاتي وأهدافي تغيّراً حاسماً في الوقت ذاته؛ إذ بينما كنت في الأطوار السابقة من حياتي منشغلاً بكيفية العمل والتنفيذ فقد دلفت بعدها في طور جديد من حياتي حيث كنت أقضي جلّ الوقت وأنا أفكّر وأكتب وأتبادل الأحاديث مع ناس من مشارب شتى في الحياة، ومع مرور السنوات بتُّ أرى أن شغفي العظيم يكمن في التفاعل المتبادل المتزايد مع شباب هذه الأمة، وهكذا مضيت وكتبتُ عدداً من الكتب التي عُدّت ناجحة من قبل القرّاء ربّما لأنهم رأوا فيها نصوصاً رسالية لرجل إمتلك رؤية متقدمة للهند عندما تدلف عام ٢٠٢٠ - رجل جاهد في العمل على تحقيق هذه الرؤية للهند وعمل في الوقت ذاته على جعلها واضحة لجميع أبناء الهند، وقد جاء عملي في كتبي: الهند ٢٠٢٠، أجنحةٌ من نار، عقول متوهّجة، وغيرها من الكتب مُشبِعاً - وعلى نحو عميق - للحماسة العظيمة التي لقيتها كتبي المنشورة دوماً من قبل عامّة القرّاء في هذا البلد.

بينما كنت منشغلاً بالتعبير عن رؤيتي وحلمي لما أبتغيه للهند من خلال المحاضرات واللقاءات والمقالات والكتب فقد أصبحت في الوقت ذاته أكثر ولعاً بحقول جديدة من التقنية: أتيحت لي تجربة مميزة فريدة من نوعها في التسعينيات (من القرن العشرين) في المساعدة على صياغة ستراتيجيات البرنامج الرؤيوي للهند ٢٠٢٠، وأنيطت بي مهمة رئاسة مجلس المعلومات والتنبؤ والتقييم في التقنية (TIFAC)، وحصل في الإجتماع الأوّل للمجلس أن إتخذنا قراراً بأن المجلس ينبغي أن يطوّر خطة بشأن كيفية تحويل الهند إلى أمة ناهضة على

الصعيد الاقتصادي بحلول عام ٢٠٢٠، وفي الوقت الذي كان فيه معدل النمو في الهند يتراوح بين خمسة وستة بالمائة بالنسبة للفرد الواحد بمعايير الناتج المحلي الإجمالي GDP كان علينا في اللجنة أن نضع تصوراً لرفع تلك النسبة إلى عشرة بالمائة وبصورة ثابتة للسنوات العشر القادمة واضعين في حسباننا أن تلك الرؤية التنموية مصممة لكتلة بشرية تناهز المليار نسمة. قدح هذا البرنامج الطموح عقول جميع أعضاء اللجنة، وانخرط الجميع في حوارات معمقة أسفرت عن تشكيل سبعة عشر فريق عمل وبلغ مجموع أفراد هذه الفرق مايزيد على الخمسمائة، ومضى هؤلاء الأفراد يعملون بجدّ في لقاءات إستشارية مع حوالي الخمسة آلاف من القياديين لقطاعات مختلفة من الإقتصاد الهندي، وقد عملت اللجان بدأب لأكثر من سنتين كاملتين وتوّج عملها بخمسة وعشرين تقريراً قدّمت إلى رئيس الوزراء الهندي في ٢ آب (أغسطس) ١٩٩٦، وكان هذا الجهد مثالاً ممتازاً للكيفية التي يمكن بها للمؤسسات والهيئات المختلفة أن تعمل بطريقة تكاملية لتحقيق التنمية الوطنية المأمولة. بينما كان نشاط فرق العمل في اللجنة يتقدّم باضطراد وجدت من جانبي ضرورة عظمى لتدقيق ماكان يجري على صعيد الزراعة وتقنية المعلومات وراقني ذلك الجهد وأمتعني غاية المتعة وغدا لاحقاً إلتزاماً شغوفاً بالنسبة لي، وفي الوقت الذي مضيت فيه للسفر إلى كلّ أنحاء البلاد والإلتقاء بالطلبة والمدرّسين والمدراء وذوي المناصب القيادية فقد أدركت أن العمل على إمتلاك رؤية تنموية ليس إلا الجزء الأول من عملي؛ إذ حينما يستطيع المرء التعبير عن رؤيته والحديث عنها بمفردات واضحة وخوض النقاشات بشانها – حينئذ فقط يمكن القول أن تلك الرؤية باتت تنضح بالحياة، لذا عزمت على ضخ الحياة في تلك الرؤية من خلال تبادل الأحاديث عنها مع الناس

أينما ذهبت، وكذلك من خلال الحاجة إلى جعل الهند مجتمعاً قائماً على المعرفة Knowledge – Based Society: بلد تأتي له التقنية بالتمكين والقوة في الوقت الذي نستمر فيه بالتواصل الثري مع الأبعاد الروحية في أمتنا ونعمل على الإرتقاء بها إلى مديات أبعد.

تمثّل فترة رئاستي للهند التي إمتدّت للأعوام ٢٠٠٢ – ٢٠٠٧ نوعاً من درس مستديم لي في فهم الأعجوبة المسمّاة (الهند): خلع عليّ الإعلام لقب (رئيس الشعب) الذي سرعان ماتلقّفه الجميع في طول البلاد وعرضها وصار توصيفاً شائع التداول، وينبغي عليّ القول بأنّني كنت في غاية السعادة لوصفي ذاك، وبعد أن نلتُ التثبيت الرئاسي كنت واثقاً تمام الثقة بعزمي على قضاء أكبر قدر متاح لي من الوقت وأنا أجول في بقاع بلادنا المترامية الأطراف والحاوية على نسيج معقّد من الأطياف الإجتماعية. أردت أن أرى بعينيّ كيف يعيش الناس في مختلف أنحاء البلاد، والبيئة التي تشكّلت منها حياتهم، والمعضلات التي يواجهونها في حياتهم والكيفية التي يجري بها تذليل تلك المعضلات، وقيل لاحقاً أنني بصفتي رئيساً للبلاد قد زرت مناطق بعيدة فيها أكثر ممّا فعله أي رئيس قبلي: من المنحدرات الصقيعية في سياكين حتى الولايات الجنوبية الشرقية البالغة الجمال، ومن المناطق الغربية البعيدة وحتى أعماق الجنوب، رأيت كل هذه المناطق و لم تبق أية بقعة لم أزرها في الهند بإستثناء منطقة لاكشواديب (والتي سأظلّ آسفاً بشأنها). سافرت برّاً وجوّاً وحتى بالسكة الحديدية في ثلاث مناسبات مختلفة بعدما تمّ تحديث العربة الرئاسية وتزويدها بالمعدّات الحديثة (مثل الخرائط المزوّدة من قبل الأقمار الصناعية)، ويتوجّب عليّ القول أنني رأيت بلدي من زوايا نظر مختلفة وتلك تجربة فريدة أتيحت لي وسأظلّ ممتناً لها إلى الأبد.

ماالذي تعلّمتُهُ من مئات (لا، بل قل ملايين) الرجال والنساء والأطفال الذين قابلتهم خلال تلك السنوات؟ تعلّمت أننا - كمجتمع - قد تمّ تدريبنا وترويضنا على عدم مساءلة الوضع الراهن status quo، وأن الأمر يستلزم الكثير من الرفق والتشجيع لدفع حتى طلبة المدارس اليافعين الذين قابلتهم على فتح أفواههم وطرح أسئلتهم بثقة، ولايعني هذا قطعاً أن هؤلاء لم يكونوا يتساءلون في دواخلهم وعقولهم ولكنهم كانوا ينتظرون فرصة لدفع تلك التساؤلات إلى السطح وإعلانها على الملأ، ومن بديهيّ القول أن البوابات المواجهة للسدّ متى مافُتحت فستتفجّر مياه السدّ متدفقة بالفضول والحرص على الإستزادة من العلم والمعرفة، ولطالما غُمِرتُ حينذاك بأسئلة شتى بشأن العلم والتقنية والفضاء والفنون بل وحتى سئِلتُ عن السبب في بقائي عازباً طيلة حياتي والسبب الذي يدفعني لتصفيف شعري على النحو الذي أبدو فيه دوماً!! وحاولت من جانبي أن أجيب عن كل تساؤل من تلك التساؤلات بإجابة إجتهدت أن أفكر فيها بإسهاب وأن تكون نزيهة ومفصّلة بقدر ماستطعت، وقد أخبرتُ الشباب اليافعين أنني لازلت بحّاثة seeker إلى حد بعيد وقد جئتهم إبتغاء للحوار وتبادل الأفكار معهم وفي الوقت ذاته طلباً للإجابات التي بحثت عنها طيلة حياتي، وعرفت لاحقاً بعد تلك الزيارات ماالذي يعنيه أن تكون هندياً، وماالذي يعنيه أن تكون رجلاً أو امرأة في هذه البلاد، وكيف يمكن لأي واحد فينا أن يساهم في تشكيل صورة مجتمعه في الوقت الذي يعيش حياته كما يشتهي، وماالذي يمكننا أن نفعله بمثل ذلك الفهم لمجتمعنا وبلادنا.

نالت سنوات رئاستي حصتها من الإضطرابات السياسية التي كتبت عنها في كتابي الأخير المعنون (إنعطافات Turning Points)، وباعتباري

الرأس الدستوري في البلاد فقد ألفيتُ نفسي منغمساً وعلى نحو شديد التعقيد بالعملية الديمقراطية في البلاد، واستولت على معظم تفكيري ووقتي وجهدي موضوعاتٌ من نوع: البرلمان والطريقة التي يعمل بها هو والمؤسسات الدستورية الأخرى في البلاد، والرئيس وكيف يمكن له تحقيق التغيرات المرتجاة على الأصعدة الخاضعة لتأثيره المباشر، الخ.

بعد إنقضاء فترتي الرئاسية عدت وأنا ممتلئ بسعادة غامرة إلى حياتي السابقة في التدريس وإلقاء المحاضرات في شتى أصقاع البلاد وخارجها كذلك، وكنت حينذاك مشغولاً بالقدر ذاته- بل وربما أكثر - عندما إنغمست في العمل الدؤوب بلا كلل في دفع مشروعاتي المفضّلة قدماً إلى الأمام وبخاصة مشروع الهند ٢٠٢٠ ومشروع تجهيز وسائل الراحة الحضرية للمناطق الريفية PURA، وقد حرصت كل الحرص آنذاك على إدامة التواصل والإلتقاء بالطلبة وإجراء البحوث في الجامعات الهندية والأجنبية وكذلك المساهمة في طرح وجهات نظري بشأن العديد من الموضوعات الوطنية، وقد زرت في تلك الأثناء أكثر المناطق النائية في الهند بقصد الحديث مع الطلبة فيها ومنحهم رؤية أكثر وضوحاً وإتساعاً بشأن مستقبلهم، وقد سألني هؤلاء أسئلة مختلفة تبدأ بالتخصّصات الدراسية التي ينبغي لهم دراستها مستقبلاً، ثم سرعان ماتمتدّ الأسئلة وتتشعّب لتتناول مسائل البنية التحتية في بلداتهم ومقاطعاتهم.

لم أقصد من كتابي هذا أن يكون تجميعاً تراتبياً خطياً لحياتي؛ إذ سبق لي أن فعلت هذا في وقت أبكر. إن هذا الكتاب الصغير هو بمثابة محطة إستراحة في طريق طويل يشهد رياحاً عاصفة، وتمثل تلك المحطة في العادة بقعة تتطلّع إليها وأنت عالق وسط زحمة العمل اليومي وحيث يمكنك من تلك البقعة أن تنحرف قليلاً عن الحشد المتدافع أمامك وتتوقف لتلقي

نظرة على ذلك الحشد وتستعيد ذكريات الحوادث التي مرّت بك في تلك الرحلة، وربما كانت تلك البقعة مثل إستراحة قصيرة حصلت عليها يوماً وأنا أستقلُ القطار من مدراس حتى ديهرا دون حيث أتيحت لي رؤية البلاد من أطرافها الجنوبية وحتى حافاتها الشمالية القصية للمرة الأولى في حياتي، ولكن في حالتي الراهنة هذه لم تعُد عيناي تركّزان البصر على محض الوجهة النهائية للرحلة وحسب بل صار بوسعي أن أتلفّت وأندهش بالبداية السحرية التي تشكلت بها حياتي: أستطيع ان أرى أبي عائداً من العمل وهو يحمل بعض ثمار جوز الهند بين يديه وعقله مُستنير بقوة الصلاة الملهمة، وأستطيع أن أتابع الحركات السريعة لذراعَي أمي وهي تحضّر لنا الصلصات ومرق السامبر اللذيذ مع الرز لنتناوله كوجبتنا اليومية كما أتذكرها وهي تومئ لي بالجلوس قريباً منها على أرضية المطبخ، وأستطيع أن أغمض عينيّ وأسمع صوت الموجات الهادرة وإصطفاق الرياح بجذوع الأشجار عندما كانت الأعاصير تضرب راميسوارام، ولاأزال أستطيع تذكّر حجم التعب الذي ينال من يديّ وساقيّ بعد يوم عمل مجهد يبدأ صباحاً بتوزيع الصحف اليومية وينتهي مساءً بجمع النقود المتحصّلة من بيع تلك الصحف، وأستطيع أيضاً تذكر الكلمات والأصوات جميعها وبوضوح تام كما لو أنها قيلت البارحة!! أستطيع أن أسمع أبي وهو يقول لي: «أعلمُ أنك يجب أن تغادر بعيداً لتواصل إرتقاءك. ألا تحلّق النوارس بعيداً حول الشمس ومن غير عشّ يمنحها الأمان؟ ينبغي أن لاتجعل من توقك الهائج للأرض التي شهدت ذكرياتك سبباً يكبح إنطلاقتك نحو الأمكنة التي يمكن أن تحقق فيها رغباتك الأعظم. إنّ حبّنا لك لن يكون قيداً عليك مثلما لن تكون إحتياجاتنا سبباً للإمساك بك ومنعك من التحليق بعيداً وراء طموحاتك».

في محطة الإستراحة هذه أستطيع أن أتوقّف وأنتظر رفقائي المسافرين لأدعوهم أن يشاركوني جولة إضافية على الأقـدام: باكشي لاكشمانا ساستريغال، الأب إيادوراي سولومون، أحمد جلال الدين، الدكتور فيكرام سارابهاي، البروفسور ساتيش داوان، الدكتور برام براكاش، أفكّر في هؤلاء جميعاً والكثيرين أمثالهم من الّذين أثّروا فيّ بعمق وعملوا على تشكيل أفكاري ورؤيتي المستبصرة، وفي الوقت الذي كنت أروي فيه حكاياتهم (في الأقسام السابقة من الكتاب) فإنني كنت أشعر بحضورهم القويّ المؤثر بصورة لم أعهدها فيّ من قبلُ، وإنّ ثمار أفكارهم التي أينعت في روحي بقيت تلازمني سنوات طويلة حتى بعد أن تباعدت بنا مقادير الحياة، وعندما أشاركك عزيزي القارئ حكايات هؤلاء - نبلاء الروح - يملأني الأمل بأن بعضاً من بذور أفكارهم ستجد ملاذاً خصباً لها في عقلك مثلما فعلت مع عقلي في وقت سابق، وأحسب أنّ نقل الأفكار والآراء والمُثُل والمبادئ الراقية هو حلقة جوهرية وأساسية في السلسلة التي ندعوها (الحياة).

العمل الدؤوب والتقوى، الإنكباب على الدراسة والتعلّم، الشفقة والمغفرة - هذه كانت دوماً أحجار الزاوية في حياتي، وقد أمكنني من خلال هذا العمل مشاركة الناس بجذور إيماني بهذه القيم النبيلة، وأحسب في حقيقة الأمر أن أية حياة عاشها المرء على نحو بالغ الثراء والإمتلاء وتحدّث بشأن ثرائها وامتلائها مع الآخرين فإنها ستغدو منجماً من الأفكار والمشاعر التي بوسعها إضافة المزيد من البريق على تلك الأعجوبة التي ندعوها (الحياة). وفي سياق هذه العملية، إذا ماأتيحت لأفكاري القدرة على منح القرّاء أجنحة تمكّنهم من التحليق بعيداً وتحقيق أحلامهم فأحسبني حينذاك قد أتممت النهوض بأعباء دوري الصغير في مخطط الحياة والذي حمّلني إياه القدر ووضع أعباءه على كاهلي.



أعمال الكاتبة لطفية الدليمي

أولاً – المؤلّفات:

١– ممر إلى أحزان الرجال – قصص – بغداد – ١٩٧٠.

٢– البشارة – قصص – بغداد – ١٩٧٥.

٣– التمثال – قصص – بغداد – ١٩٧٧ – دار الجاحظ.

٤– إذا كنت تحب – قصص– بغداد –١٩٨٠ – طبعة ثانية دار المدى ٢٠١٥.

٥– عالم النساء الوحيدات – رواية وقصص – بغداد – ١٩٨٦– طبعة ثانية دار المدى –٢٠١٠.

٦– من يرث الفردوس – رواية – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ١٩٨٩ طبعة ثانية – دار المدى ٢٠١٤.

٧– بذور النار – رواية – بغداد – ١٩٨٨ – دار الشؤون الثقافية العامة.

٨– موسيقى صوفية– قصص – بغداد (حصلت على جائزة القصة العراقية ٢٠٠٤) – طبعة ثانية – ٢٠١٣ دار المدى – بغداد.

٩- في المغلق والمفتوح- مقالات جمالية - دار نقوش عربية تونس - ١٩٩٩.
١٠- ما لم يقله الرواة - قصص - الأردن - دار أزمنة - ١٩٩٩.
١١-شريكات المصير الأبدي - دراسة عن المراة المبدعة فى حضارات العراق القديمة - دار عشتار - القاهرة - ١٩٩٩ طبعة ثانية دار المدى ٢٠١٣ بغداد.
١٢- خسوف برهان الكتبى - رواية - ٢٠٠١ رام الله - دار الزاهرة.
١٣- الساعة السبعون- نصوص- بغداد - ٢٠٠٠ - دار الشؤون الثقافية العامة.
١٤- ضحكة اليورانيوم - رواية - ٢٠٠٠ - دار الشؤون الثقافية العامة.
١٥- برتقال سمية - قصص- ٢٠٠٢ - بغداد - دار الشؤون الثقافية العامة.
١٦- حديقة حياة- رواية -٢٠٠٤ بغداد دار الشؤون الثقافية - طبعة ثانية دمشق - اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠٤.
١٧- يوميات المدن - ٢٠٠٩ - دار فضاءات - الأردن.
١٨- كتاب العودة إلى الطبيعة - بغداد ١٩٨٩.
١٩- رواية (سيدات زحل) ٢٠٠٩ - دار فضاءات - الأردن طبعة ثانية دار فضاءات ٢٠١٢ - طبعة ثالثة ٢٠١٤.
٢٠- كتاب كوميكس باللغة الإسبانية بعنوان (بيت البابلي) مستل من فصول روايتي سيدات زحل - ٢٠١٣ دار نورما - مدريد.
٢١- مسرات النساء - قصص - دار المدى - ٢٠١٥.
٢٢- إذا كنت تحب - قصص - دار لمدى ٢٠١٥.

٢٣- عُشّاق وفونوغراف وأزمنة - رواية - دار المدى - ٢٠١٦.

٢٤ - مدني وأهوائي - جولات في مدن العالم - الكتاب الفائز بجائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي - فئة الرحلة المعاصرة - دار السويدي - الإمارات ٢٠١٦.

ثانياً - الأعمال المترجمة عن الإنكليزية:

١ -بلاد الثلوج - رواية - ياسوناري كواباتا - دار المامون - بغداد ١٩٨٥- طبعة ثانية دار المدى ٢٠١٣.

٢ -ضوء نهار مشرق- رواية - أنيتا ديساي- دار المامون - بغداد١٩٨٩- طبعة ثانية - دار المدى ٢٠١٢.

٣- من يوميات أناييس نن - دار أزمنة - الأردن -١٩٩٩- طبعة ثانية - دار المدى ٢٠١٣.

٤- شجرة الكاميليا- قصص عالمية - بغداد ٢٠٠٠.

٥- حلمُ غايةٍ ما - السيرة الذاتية للكاتب - الفيلسوف كولن ويلسون، دار المدى، طبعة أولى، ٢٠١٥.

٦- أصوات الرواية - حوارات مع نخبة من الروائيّات والروائيين - صدر ككتاب مجّاني مع مجلّة دبي الثقافيّة العدد ١٢١ في يونيو ٢٠١٥.

٧- تطوّر الرواية الحديثة، تأليف: جيسي ماتز، دار المدى، ٢٠١٦.

٨- فيزياء الرواية وموسيقى الفلسفة: حوارات مختارة مع روائيات وروائيين - دار المدى ٢٠١٦.

ثالثاً - الأعمال الدرامية:

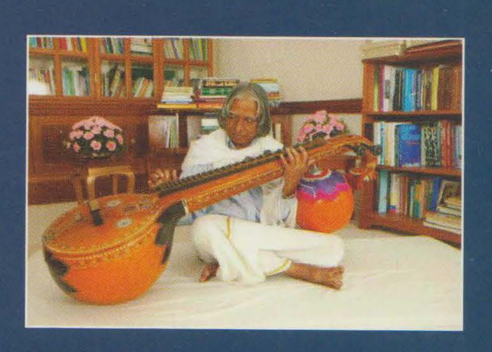
١- مسرحية الليالى السومرية - نالت جائزة أفضل نص يستلهم التراث السومريّ- قراءة مغايرة لملحمة كلكامش.

٢- مسرحية الكرة الحمراء - ١٩٩٧.
٣- مسرحية الشبيه الأخير - ١٩٩٥.
٤- مسرحية قمر أور.
٥- مسرحية شبح كلكامش.
٦- مسلسل تاريخي عن الحضارة البابلية بِـ (٣٠) ساعة.
٧- سيناريو صدى حضارة - عن الموسيقى في الحضارة الرافدينية.

رابعاً - الدراسات:

١- جدل الأنوثة فى الأسطورة - نفى الأنثى من الذاكرة.
٢- كتابات في موضوعة المرأة والحرية.
٣- دراسات فى مشكلات الثقافة العراقية الراهنة.
٤- اللغة متن السجال العنيف بين النساء والرجال- لغة للنساء في سومر القديمة.
٥- صورة المراة العربية فى الإعلام المعاصر.
٦- دراسات في واقع المراة العراقية خلال العقود السابقة وبعد الاحتلال.
٧- دراسات في حرية المرأة - إعداد وتحرير وتقديم - مركز شبعاد ٢٠٠٤ بغداد.
٨- كتاب أوضاع المراة العراقية في ظل العنف بأنواعه وعنف الاحتلال - إعداد وتحرير وتقديم، ٢٠٠٥.
٩- مختارات من القصة العراقية - ترجم إلى الإنكليزية والإسبانية - تحرير وتقديم - دار المأمون.

نشر الدكتور زين العابدين عبد الكلام هذه المذكرات (رحلتي: تحويل الأحلام إلى أفعال) في كتاب صغير عام ٢٠١٣ ، ويمكن النظر إلى هذا الكتاب ـ المذكرات على أنه إستذكارات جميلة لتفاصيل صغيرة لم يأتِ عبد الكلام على ذكرها في سيرته الذاتية المنشورة في كتبه السابقة ومنها كتابه الشهير (أجنحة من نار)، نستشعر في هذه المذكرات ذلك الحس الروحاني السامي إزاء الناس والطبيعة والزمن كما نتلمس العاطفة الجياشة التي تملأ روح الكاتب وعقله وهو يأتي على ذكر تفاصيل من طفولته وصباه ساهمت في تشكيل وعيه المبكر وشخصيته الإيثارية ذات الطموحات الملحمية العابرة للذات والساعية لتكريس الهند كقوة عظمى على الساحة العالمية.



تمتاز هذه المذكرات بغلبة الطابع الحميمي فيها وتركيزها على الجوانب الإنسانية النبيلة التي تعدّ ضرورة لازمة تفرضها متطلبات العيش وإدامة الحياة في البيئات الفقيرة من العالم، يؤكد عبد الكلام هنا على القيمة العليا للجوانب الإيثارية الرائعة التي حازها شخوص كثيرون في حياته إبتداء من أبيه التقيّ وأمه وأخته وإبن عمه وحتى بائع الكتب في مدينة مدراس وإنتهاءً بالعلماء الكبار الذين عمل معهم في وقت لاحق من حياته المهنية..

يكتب عبدالكلاْم عن عطاء الروح دون انتظار مقابل: (تطلّع في الزهرة وهي تنشر بكرمٍ عبيرها الفواح وعسلها الشهي، هي تمنح الجميع بركاتها المجانية النابعة منٍ جوهر روحها المتسربلة بالحب، وعندما تنتهي من عملها ترتمي على الأرض في هدوء كامل. إجتهد بكل قدرتك المتاحة أن تكون مثل الزهرة التي تمنح من غير مقابل رغم عظمة ماتحوزه من صفات..)


ISBN 978-2843091148
9 782843 091148